

بَدِيعُ الْقُرْآنِ

لِابْنِ أَبِي الْأَصْبَعِ الْمِصْرِيِّ

[٥٨٥ - ٦٥٤هـ]

تقديم وتحقيق
حَفَنِي مُحَمَّد شَرْفُ
ماجستير في اللغة العربية وآدابها



مكتبة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

المطبعة
عز الدين علي الدين

2008-09-14

كلية آداب - بنين

بائع القارئ

لابن أبي الأصبع المصري

[٥٨٥ - ٦٥٤ هـ]

تقديم وتحقيق
حفي محمد شرف
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

جامعة الكويت
إدارة المكتبات - قسم المخطوطات
٩٥٧٧٣
١٤/١٢/٢٠٠٧



منظمة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

المطبعة
عز الدين علي الدين

1974

مجمع

مجمع

1974 - 1975

مجمع

مجمع

مجمع

مجمع

مجمع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

- ١ -

وهكذا يستقر في أذهان الدارسين أن البحوث الأدبية الأصلية لا يستقيم أمرها إلا إذا سبقها تحقيق النصوص الأدبية ونشرها نشرًا علميًا يُزيل عنها اللبس، ويبرئها من الشك والغموض، حتى تبدو صحيحة كما أنشأها صاحبها، وحتى يقف الدارس منها على أرض من الحديد لا تصيبها الزلازل؛ فيقرأ، ويفسر، وينقد، ويؤرخ، ويُفيد.

وهكذا، أيضاً، يصبح نقد النصوص أو تحقيقها ونشرها علمًا له أصوله المقررة، وقواعده المرسومة؛ يأخذ بها كل جاد في طبع ديوان أدبي، أو كتاب علمي، مهما يكلفه ذلك من مال، وجهد، وزمن. فتصوفاً في ذلك، معتقداً أنه إنما يضع اللبنة الأولى في بناء العمل العلمي الصحيح.

وقد مضى - إلى غير رجعة - ذلك المهد الذي كانت المطبعة أو المكتبة تغفر بإخراج طبعة أي طبعة لكتاب أي كتاب غير عابثة بما ارتكبت في سبيل ذلك من إهمال الأصول الأولى للكتاب، ومن التورط في الحذف والخطأ، ومن تعريض القراء والدارسين لعجز في الفهم، وزيف في النقد، ومن ظلم المؤلفين والمنشئين، ومن تحريف في تاريخ العلوم والآداب.

- ٢ -

ولست أُوغل في الماضي القديم منذ نشأة هذا الفن الخطير ، وإنما ألاحظ أن كلية الآداب بجامعة القاهرة سبقت حديثاً إلى هذا الجانب من الواجب العلمي فارسته نظرياً وتطبيقياً ، وأخذت الطلاب بالمرانة عليه ، واعتبرته في مقدمة الأعمال التي تمنح به الدرجات الجامعية العليا ، ولعل أولى درجات الدكتوراه في كلية الآداب إنما مُنحت بنشر «شاهنامة الفردوسي» باللغة العربية .

كما أذكر أن قسم اللغة العربية في هذه الكلية قد أشار إلى الأستاذ الألماني (برنجستراسر) بإلقاء محاضرات في هذا العلم أو الفن على طلابه ، ولا تزال محاضراته أو خلاصتها بين أيدي بعض أساتذة الكلية لم تنشر إلى الآن على الرغم من إلحاحي عليهم بنشرها لفائدة العلم من جهة ، ووفاء لصاحبها من جهة أخرى .

وسار أمر التحقيق والنشر في مصر والشرق العربي بأسلوب عملي اجتهدى في الغالب وعُرف به جماعة زاو كوه موفقين إلى حدٍّ ، وتعهدته بعضُ المؤسسات الحكومية والأهلية ، وظهر في السوق طاقة من الكتب متفاوتة في درجة التحقيق ، إن لم تبلغ الكمال فهي مقاربة ، وهي أيضاً قد فتحت النفوس للقراءة ، وبعثت فيها اطمئنان أي اطمئنان .

وفي سنة ١٩٥٤ م أشرتُ على السيد الأستاذ الفاضل عبد السلام هارون ، الأستاذ بكلية دار العلوم وأحد اللامعين النابهين في هذا الفن ، أن يلقي فيه محاضرات على طلاب (الماجستير) يسجل بها تجاربه ، ويدون خبرته فاستجاب كريماً موفّقاً وجلستُ مع الطلاب أستمع إليه وأفيدُ منه إذ كانت محاضراته قسماً من (مناهج البحث الأدبي) التي كنت أدرسها لطلاب الدراسات العليا حينذاك .

ثم عاهدته على أن ينشر محاضراته فأوفى بالعهد ، ونشرها بعنوان
(تحقيق النصوص ونشرها) وكان بذلك أول جامعى يطالع الناس بشمرات
جهوده في هذا الباب . .

- ٣ -

وليس من شأني هنا أن أتدخل في تفاصيل هذا الفن أو العلم ، وهي
موكولة إلى المختصين الذين أرجو مخلصاً أن ينشروا بلغتنا العربية ما يزيد
الناس نوراً ، ويصّرم بهذا الواجب المقدس الذي يحترم النصوص ،
ويحفظ عليها حرمتها ، ويقدر نقادها وناشريها ، ويعصمها من ذلك العبث
والإهمال ، ويُقيم عليها دراسات طويلة ، عريضة ، عميقة ، وينقّي عنها تلك
السطحية أو النظرة الخاطفة السخيفة .

لست أتدخل ، ولكني أشير ، من قرب أو بعد ، إلى ذلك الجهد المضي
الذي يبذله هؤلاء المتصوّفة المتواضعون في جمع (الأصول) من الشرق
والغرب ، والشمال والجنوب ، ثم المقارنة بينها ، وترتيبها تاريخياً ، وقد
خطوطها ، ومداودها وأوراقها وما أضيف إليها في الهوامش والحواشي ،
وما أصابها من (خروم أو تدليس وتزوير) وعرضها على النصوص المعاصرة
وغيرها ، .. ثم الانتهاء من ذلك وسواه إلى صورة كاملة أو مقارنة
وإعدادها للشر بفهارس منوعة . تدل على جميع محتوياتها وتيسّر على
القارئ الإفادة التامة السريعة . كما يترأى ذلك في هذا الأثر الذي أقدمه
بهذه الكلمات .

- ٤ -

وهكذا . أيضاً ، كان السيد/ حفني شرف أول من تصدّى من طلاب
(كلية دار العلوم) لهذا العمل العلى ، فتقدّم لدرجة الماجستير بتحقيق
(بديع القرآن) لابن أبي الإصبع المصري ، وقد أشفقْتُ عليه من أول

الامر وحاولت دفعه عنه ، ولكنه أصرّ وثبت ، معتدّاً بأن له في ذلك خبرة يحكم عمله بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية .

ولكنني لم أكتف بذلك فأشرت عليه أن يعرض عليّ (أصول الكتاب) مع تقرير عنها ، ففعل واستكمل من الأصول ماوسعه ، وهنا سمحت له بالبدء ، والرجوع في ذلك الفن إلى الزميل الكريم الأستاذ عبد السلام هارون بعد ملاحظات وضعتها بين يدي هذا الطالب لعلها تنفعه .

وقد صبر حقني شرف ، وصابر ، وبذل من ماله ، وشبابه ، ومجده ، مابذل ، متواضعا يصل الليل بالنهار ، وينصرف عن أهله وولده ، ويحتمل صعب البحث والدرس ، راجيا ، كما قال في المقدمة ، أن يكون عمله مقاربا للكمال إن لم يبلغ مداه ... أفأنت تطلب من الإنسان فوق طاقته أو مالا تسمده به وسأله ١٩

والتقديم ؟ تقديم هذا النص والتعريف به وبمؤلفه ، وهنا لا بُدّ أن أتدخل فأرسم له المنهج ، ومع ذلك كان المنهج بسيطا جدا لا يعدو هذه الفصول : من التعريف بكلمة (بديع) وتبنيها في تاريخ الاستعمال الأدبي حتى عادت اصطلاحا عليا ، وكان التتبع دقيقا شاملا ، ثم هذا الفصل الثاني في تاريخ البحوث التي تناولت (بديع القرآن) بمعناه العام .

وفصل ثالث في حياة المؤلف وآثاره ، وهي فصول تعلقك قريبا . وبذلك يتم الطالب التحقيق والتقديم ويسبق إلى الإسهام في بحث أديب كبير ، وتمهيد لتاريخ البلاغة في وطنه العزيز .

فهل انتهى صاحبنا عند هذا الحد وسكت أو حاول السكوت ؟ يبدو أن نقد النصوص أو تحقيقها صار عند السيد/حقني شرف ، داء

أصيب به فالترمه، أو دواء يشقى به ما فى نفسه من الرغبة فى البحث، وإشباع حاجتها إلى الكدح ونفش المخطوطات ونشرها، فلم يكد يتهى من امتحان الماجستير حتى أخذ يحقق نصابا آخر يتقدم به لدرجة الدكتوراه .

اختار كتابا آخر لابن أبى الإصبع، وهو (تحرير التحبير) ، كتاب بلاغى ولعله أصل (لبيع القرآن) وأشمل منه، وأحفل بالبحوث النقدية والبلاغية، وأحوج إلى جهد مضاعف . وعناء شديد، وهامو ذا يجمع أصوله، ويخرج شواهد، ويستقصى مصادره، ويعرضه على نظائره، ويعدده للنشر، فلنتركه فى جهاده ولنطلب له التوفيق .

- ٦ -

أما بعد ، فإني أنا ، أتهز هذه الفرصة لأقرر أن الدراسات البلاغية لا تزال تحيا فى فلك المنهج القديم : علومه ومسائله ، وأن هذا العلم (البلاغة) فى حاجة ملحّة إلى وضع جديد أشار به السابقون، وأجملته أنا فى غير هذا المكان ، ورجوت أن ينهض به هذا الرعيل الجديد ، فإن استطعت تفصيله ... وإلا فكم ترك الأول للآخر والسلام ؟

أحمد الشايب

٢٣ من أكتوبر سنة ١٩٥٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

موضوع البحث - أهدافه - منهجه - مصادره

- ١ -

وقفتُ في دار الكتب المصرية على كتاب « بديع القرآن » لابي محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصري المعروف بابن أبي الإصبع ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وقُرأت بمض فصوله فإذا أنا أمام كتاب يجمع في بحوثه بين البلاغة والنقد الأدبي ، ويعتمد في دراسته على الاستقصاء ، والتحليل ، والموازنة ، والابتسكار ، بحيث يمثل حلقة وضادة في تاريخ البيان العربي ، وبخاصة فيما يتصل من ذلك بكتاب الله الكريم .

ثم هو مع ذلك يمثل تاريخ البلاغة في مصر ، إذ كان مؤلفه مصري المولد ، والنشأة ، والدراسة ، والحياة كلها . وكان أديبا شاعرا له هذا الطبع الذي ينأى إلى حد كبير عن النظرات الفلسفية التجريدية التي أفسدت الدراسة البلاغية عند المتأخرين ، فاستطاع هو وابن الأثير أن يتشبَّثا بالجوانب الفنية التي تبرز نواحي الجمال والقوة والوضوح في النصوص الأدبية شعرا ونثرا .

لهذه الأسباب ، ولحق العلم الخالص ، اعترفتُ بنشر هذا الكتاب ودراسته ، لبيان ما فيه من خصائص أدبية وعلمية ، ولإبراز عنصر من عناصر « المصرية » (م - ١ - بديع القرآن)

في تابع الأدب العربي إذ كانت البلاغة — أو البديع على حد تمييز ابن أبي الإصبع — من أهم مميزات الفن الأدبي بعامه وفي مصر خاصة .

— ٢ —

إلا أن النسخ التي وقفتُ عليها في دار الكتب المصرية قليلة العدد ، فهي ثلاث تختلف في بعض المواضع ، وقد لا تكفي وحدها لتحقيق نص الكتاب تحقيقا كاملا أو مقربا ، وهنا توقفتُ بعض الوقت حتى علمت أن اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية استطاعت أن تحصل من مكتبات مختلفة على صور أخرى ثلاث لهذا الكتاب ، فأصرعت إلى الحصول عليها ، وبذلك هيئت لي ستُّ نسخ يمكن الاعتماد عليها إلى حد لا بأس به في تحقيق النص وإعداده للنشر ، ثم الفراغ فيما بعد لدراسته دراسة شاملة .

وفي ذلك الحين ذكرتُ كلية دار العلوم ودرجاتها العلمية العليا ، وحرصها على أن يتجه أبنائها إلى العناية بالنشر أولا وقبل كل شيء ، إذ هو الخطوة الأولى للبحوث العلمية الحقيقية ، فتقدمت إليها بهذا الكتاب لدرجة « الماجستير » تحت عنوان — تحقيق ودرس — وفرتُ للنص أدرس أصوله : توثيقا ، وتاريخيا ، ومقارنة ، وتحقيقا ، والتزمت في ذلك القواعد العلمية للتحقيق كما أقرها المختصون ، وكما أفدتها بالممارسة في دار الكتب المصرية إذ كنت عضوا في القسم الأدبي بها ، وقد أثبتتُ ذلك كله في التمهيد للقسم الأول من هذه الرسالة ، وهو قسم التحقيق ، وبذلك انتهيت إلى نص لهذا الكتاب إن لم يكن كاملا في باب التحقيق العلمي فإنني أرجو أن يكون مقاربا للكمال إن شاء الله تعالى .

— ٣ —

بقيت الدراسة ، وتمنيتُ أن أهنئ بها في ظل هذه الدرجة الجامعية العليا — الماجستير — نعم تمنيت ذلك وأخذت فيه ولكنني وجدت ذلك مجازفة وهجوما على ما لا ينبغي الآن ، وإسرافا في الجهد والوقت ، وربما كان خروجا

على الطاقة العلمية التي تدّخرها الجامعة عند أبنائها المتابعة للبحوث واطّرادها .

وكيف ذلك ؟

إن دراسة هذا الكتاب لابد أن تقوم على جانب تاريخي يصل بين هذا الطّور الذي مثله ابن أبي الإصبع وبين ما سبقه وما لحقه من بحوث وأنواع في بلاغة القرآن الكريم خاصة ، وفي البلاغة عامة وبيان مقدار ما تأثر به من سابقه ، وما أثر به في لاحقيه ، أي أنه يجب على الباحث أن يضع هذا المؤلف موضعهُ التاريخي في هذا الفن البياني .

ويجب كذلك ، أن تقوم على جانب آخر فني يبدى ما أضاف هذا الكتاب من نظرات جمالية أسلوبية إلى بحوث البلاغة القرآنية ، ومقدار ما تراءى فيه شخصيّة كاتبه ، موازنا ذلك بمن عاصره أو سبقه ، أو أتى بعده لتقدّر الرجل قدره مستمدّين حكما من آثاره وقيمتها .

وإن دراسة هذا الكتاب تثير أمرا يجب أن يهتمّ به المفسّرون بدروس البلاغة ، وهو التعميق عليه ، أو على علم البلاغة في اللغة العربية ، باقتراح خطة أخرى لهذه الدراسات البلاغية العلمية ، أي أنه لا بد من الجانب الاقتراحي الذي يؤلّف علم البلاغة في باين : الأسلوب ، والفنون الأدبية . وأنا أعلم أن هذه الدراسة المقترحة تأخذ مكانها الآن في كليتنا العتيقة ، وأن هناك محاضرات لطلاب اللسانيات ، تُلقَى تحت عنوان « منهج جديد لعلم البلاغة العربية » وأعتقد أن هذه الدراسة التجديدية إنما هي استجابة لما قاله علماؤنا السابقون من أن البلاغة علمٌ لا ينضج ، وعلينا نحن أن نعيد فيه النظر لعلنا نحقق للأقدمين ما ينتظرون من المحدثين .

هذه البحوث التي أشرتُ إليها وما تستتبعه من بحوث أخرى هامة ، يُعْمَرُها جهدٌ مضاعف ، ووقت طويل ، ووسائلٌ مُشتقّة من دراسات : نفسية ، ولغوية ، وفنية ... وهي لذلك خليقة بأن يفرّدها مجال عريض مستعملٌ أرجو أن أوفق إليه في فرصة أخرى إن شاء الله .

وأعود فأقول : إن تحقيق النص وحده يُعدّ عملاً أسيلًا في الدراسة الجامعية العليا ، وإنه كما أسلفت ، يعدّ الخطوة الأولى لكلِّ بحث علمي ، لذلك عُنيَتْ به كليات الجامعة وعدته أمٌّ شَيْءٌ في هذا الطَّوَر من حياتها الناشئة ، ومُنحتْ على أساسه درجة الدكتوراه ، لأنه عمل يقتضى صبرا طويلا ، وجهدا شاقا ، يبذله هؤلاء المتواضعون ، أو الجنود المجهولون الذين لا تحدهم الشهرة ووضع أسمائهم على غُلُف الكتب ، وبين هؤلاء الجنود أردت أن أقوم بنصيب من التحقيق في هذه المرحلة الأولى للدراسات العليا في كلية دار العلوم ، ولعلها — فيما اعتقد — أحقُّ الكليات وأقدرُّها على هذا النوع من الأعمال العلمية ، أعنى عمل التحقيق والنشر ، لأن أبنائها يأخذون أنفسهم مبكِّرين بممارسة النصوص : قراءة ، وفهما ، ونقدا ، وإحاطة بكلِّ ما يقوِّمُها من علوم لغوية ، وأدبية ، ودينية .

وأخيرا كان لابد لي من أن يكون عنوان رسالتي للماجستير (بديع القرآن لابن أبي الأصبع تحقيق وتقديم) .

١ — أما التحقيق — وهو العمل الأصيل لهذه الرسالة ، أو هو الرسالة نفسها — فقد أردت له قسما أوضحْتُ فيه منهجى ، فلا أعيد القول فيه ها هنا ، إلا أنى أحب أن أقول : إن هدفى فيه كان تحقيق النص وإعداده للنشر لا غير . وأما الدراسة التاريخية النقدية الاقتراحية فاما مجال آخر أرجو أن أوفق إليه فيما بعد .

٢ — وأما التقديم فإنَّه يلقاك بعد هذه المقدمة ، وهو تمهيد لمن يود قراءة هذا الكتاب أو الإقدام على دراسته ، لذلك أردت هذا التقسيم في ثلاثة فصول :

أولا : في تاريخ كلمة (بديع) والمائى التى تواردت عليها حتى انتهت إلى هذا الوضع الاصطلاحيّ المعروف الآن .

الثاني : في تاريخ (بديع القرآن) والإشارة الخاطفة إلى عيون ما ألف فيه .

والقصد من هذين الفصلين أن أضع كتاب ابن أبي الإسبع موضعه بين هذه ، وضما زمنيا وعلما .

الثالث : في التعريف بالوُلف نفسه : عصره ، وحياته ، وآثاره العلمية ... كل ذلك في إيجاز يقتضيه المقام ، إذ المقصود هو النص المحقق . وبذلك أكون قد بينت منهج هذه الرسالة بقسميها : التحقيق ، والتقديم

وهدف هذه الرسالة واضح مما قلنا هنا فإن حق العلم وحده يقتضينا تحقيق النصوص العلمية تحقيقا علميا يعرضها سليمة غير مشوهة ، ولعل هذه النصوص المحققة أهم عنصر في حضارتنا الأدبية ، ففيها إنصاف لؤلئها ، وللتاريخ الأدبي الماضي ، وللتاريخ العلمي المعاصر الذي يُبشّر بيقظة علمية تقدّر ما لها من ماض جليل يستحق الحياة .

ووجه آخر هو أن تحقيق النصوص ، كما قلنا ، هو إعدادها للدرس ، مهما تكن وجهة هذا الدرس ، فقد يستفاد من هذه النصوص كما هي ، وتبقى كما هي أيضا خالدة نافعة ، وقد تُتخذ وسيلة للتجديد حين يجب استثمارها أو التعقيب عليها ، وسواء أكان هذا أم ذاك فهي حلقة من حلقات حياتنا العقلية لا يصبح أن تنسى ، وهي بالحرى جزء من مستقبلنا أيضا ، فأى جديد لاقديم له ؟

أما مصادر هذه الرسالة ، فهي النسخ المخطوطة والمصورة ، وقد وصفتها في صدر القسم الأول ، وبيّنت طريقة استخدامها ، والمصادر عندي هي التي تضم

مادّة البحث الأصيلة، وبذلك تفترق عن المراجع التي ألجأ إليها لاستكمال التحقيق أو لتدوين ملاحظات للشرح والإيضاح .

والمراجع كثيرة، رصدتها آخر القسم الأول وفي هوامشه، لتكون عنواناً للباحثين والدارسين .

* * *

وقبل أن ألقى القلم أرى لزاماً عليّ أن أفدّم جزيل الشكر لمسلمين جليلين أرشداني أثناء إعداد هذه الرسالة إرشاداً كريماً خالصاً لوجه الله والملم، هما : الأستاذ أحمد الشايب ، والأستاذ عبد السلام هارون ، وقد علمتهما يكرهان الثناء ، ويحتسبان عند الله ما يقدران للدارسين من عون ، فأحببت رضاها بأن أسكت عملاً يجب عليّ لهما من حمد وثناء، وشكر ودعاء، وإكلاً إلى الله الكريم أن يجزيهما عني وعن العلم خير الجزاء .

والحمد لله ربّ العالمين أولاً وآخراً

حفي محمد شرف

التقديم

الفصل الأول

كلمة البديع

معانيها اللغوية والفنية في تاريخ البلاغة العربية :

- ١ -

نحاول في هذا التمهيد أن نتبع كلمة بديع في أتماء سيرها في تاريخ اللغة والبلاغة العربية ، ونقف معها عند العالم الرئيسية لفاهيمها حتى تنتهي إلى وضوحها المِلِّي الأخير :

جاء في أمّ الماچم العربية :

بَدَعَ الشيء يبدعه بدءًا وابتدعه : أنشأه وبدأه ، وبدَعَ الرِكْبَةَ : استنبطها وأحدثها ، ورَكِيَ بديع : حديثة الحفر ، والبديع والبُدْع : الشيء الذي يكون أولاً والبِدْعَة : الحدث وكل مُحْدَثَة . والبديع المُحدث المَجِيب ، والبديع : البُدْع ، وأدعتُ الشيء : اخترعته لاعلى مثال ، وسقاء بديع : جديد ، وكذلك زمام بديع ، وأنشد ابن الأعرابي في السقاء لأبي محمد الفقعسي :

يَنْضَحْنَ ماءَ الْبَدَنِ الْمُسَرَّى

نَضِحَ الْبَدِيعَ الصَّفَقَ الصَّنْفَرَا

وحبل بدیع : جديد ، والبدیع : المبتدع بالفتح والكسر ، وأبدع الشاعر :
جاء بالبدیع . هذه المعاني تنتهى إلى أمرين اثنين :

(١) الجِدَّة التى يدل عليها إنشاء الشيء ابتداء وعلى غير مثال سابق .

(٢) البراعة والقرابة التى يدل عليها المجيب .

والوارد فى سائر المعاجم لا يخرج عن هذين المنين اللغويين ^(١) .

وقد ورد لفظ (البدیع) أو مشتقاته فى الشعر الجاهلى وشعر المخضرمين
بمعنى الجديد والمخترع ، فقال عدی بن زید :

فلا أنا بدع من حوادث تفتري رجالا غدت من بعد يؤس بأسعد ^(٢)
وقال الأزهري الأودي :

ولكل ساع سنة ممن مضى تنمى به فى سميه أو تبدع ^(٣)
وقال حسان بن ثابت :

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياءهم نفّعو
سجية تلك فيهم غير محدثة ^(٤) إن الخلاق فاعلم شرّها البدع
وقال الأحرص :

فخّرت فأتّمت قلت انظري
ليس جهل أنيته يدع

(١) لسان العرب ، القاموس ، تاج العروس (مادة بدع) .

(٢) اللسان مادة (بدع) القرطبي ١٨٥/١٦ طبع دار الكتب المصرية .

(٣) ديوانه ٢٤٨ ط القاهرة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) والمراد بكلمة (البدع) هنا

مستحدثات الأخلاق .

(٤) اللسان مادة (بدع) . والأغاني ٤ : ٣٤

وأما في القرآن الكريم فقد وردت كلمة (بديع) مرتين في قوله تعالى :
﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٢) .
ومنها في هاتين الآيتين : منشئهما ومُبدئهما على غير مثال سابق^(٣)

وعندى أن ذلك يتضمن معنى العجيب أى السار ، والطريف الذى يلفت النظر ، لأن خلق السموات والأرض ابتداء يستدعى الإعجاب وقد اتخذ دليلاً على قدرة الله وألوهيته .

وفي الحديث الشريف ورد هذا اللفظ بمعنى الجديد الطيب ، يقول الرسول عليه السلام في وصف تهامة : « إن تهامة كبديع المسئل حلوا أوله، حلوا آخره »^(٤) .

وقد وردت المادة أيضاً بمعنى الجدة ، فقد روى عن الرسول : « كيف أصنم بما أبدع على منها »^(٥) ، وفي حديث عمر : « نعمت البدعة هذه » .
وسنجد هذين المعنيين يتفقان مع المانى الأدبية أو الفنية التى أطلقت فيها بعد على بعض المبارات والصُّور الواردة في الشعر والنثر لجذتهما وطاقتهما .

(١) البقرة آية ١١٧ .

(٢) الأنعام آية ١٠١ .

(٣) راجع معجم ألفاظ القرآن الكريم ٨٥/١ ط الأمانة بالقاهرة سنة ١٩٥٣ .

(٤) راجع النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٧/١ .

(٥) ابن الأثير ٦٧/١ ، واللسان والمصباح (مادة بدع) .

فإذا انتقلنا إلى الأدب العربي في صدر الإسلام شعرا ونثرا وجدنا هذه المادة مستعملةً عندهم في هذه المعاني السابقة .

أما النثر : فكقول علي رضي الله عنه : « إن^(١) أبغض الخلائق إلى رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه ، فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة » . وقوله « إنما^(٢) بدء وقوع الفتنة أهواء تُسمع وأحكام تُبتدع يُخالف فيها كتابُ الله » . وكقوله : « الحمد^(٣) لله المروف من غير رؤية » إلى أن يقول : « لا فيج ذوا عوجاج ، ولا أرض ذات مهاد ، ولا خلق ذو اعتماد ، وذلك مُبتدع الخلق ووارثه » .

وقد وردت هذه المادة أيضا في كلام ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب بنفس هذا المعنى ، مما يدل على استعمالها فيما استعملت فيه يقول ابن المقفع^(٤) :

وجلّ الأدب بالنطق ، وكلّ المنطق بالتعلم ، ليس حرف من حروف معجمه ولا اسم من أسماء أنواعه إلا وهو مروى متعلم ، مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب ، وذلك دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ، ولم يأتهم علمها ، إلى أن يقول أيضا : فمن جرى على كلام يستحسن منه فلا يمجبن به إعجاب المبتدع ، فإنه إنما اجتباه كما وصفنا .

ويقول عبد الحميد الكاتب^(٥) : (الحمد لله الملى مكانه ، النير برهانه ، الميزر سلطانه ، الثابتة كلامه ، الشافية آياته ، إلى أن يقول :) (وقدّرها بحكمه ، على ما يشاء من عزمه ، مُبتدعا لها بإنشائه إياها ، وقدره ، عليها) .

(١) نهج البلاغة ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٤) رسائل البغاء ٣ ط القاهرة سنة ١٩٠٨ .

(٥) انظر المصدر نفسه ص ٩١ و ٧٣ و ٧٠ .

ويقول في رسالة ينصح بها ولي العهد عبد الله بن مروان حينما خرج لمقاتلة الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي : « فإن وجه أحد منهم نظره إليك محمدناه أو رماك يبعثه ملحقا ، فاحفض عنه أطرافا جميلا يبدع وسكون » . ويقول في نفس الوصية : « فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهه ، ولا مقروء بنهمة ، ولا منسوب إلى بدعة ، فبمركك لا ابتداع في دينك ، » .

وأما الشعر : فكقول ممر بن أب ربيعة المخزومي :

فانتها فأخبرتها بمذرى ثم قالت أنيت أمرا بديما^(١)
وقوله :

أقلت الرشد صرتم جبال هند وما إن ما أنيت به بديع^(٢)
وكقول كثير مزنة :

وحاجة نفس قد قضيت وحاجة ركن وأمر قد أصبت بديع^(٣)
وكقول الفرزدق :

أبت ناقى إلا زبادا ورفيق وما الجود من أخلاقه بديع^(٤)
وكقول جرير :

يا آل مروان إن الله فضلكم فضلا عظيما على من دينه البديع^(٥)

وهنا يجب ألا ننسى أننا ندون المعنى اللغوي لهذه الكلمة (البديع) في المصور التاريخية والأدبية ، وهي إلى الآن عصور كانت تنشئ في الشعر والنثر المبارات والمصور الأدبية التي سيطلق عليها فيما بعد هذا الاصطلاح (البديع)

(١) ديوانه ط السعادة ص ٣٤٧ .

(٢) ديوانه ٣٥٠ والمراد ليس بعجب حدث منك بل هو شيء طبع عليه .

(٣) ديوانه طبع أوربا سنة ١٩٢٨ و١٣٢١ ومعجم الأدباء لياقوت .

(٤) من قصيدة يمدح بها زياد بن الربيع بن أنس بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث ابن مالك بن ربيعة ، وكان في هجر ؟ ديوانه ص ٤٩٣ ط القاهرة سنة ١٩٣٨ .

(٥) من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ديوانه ص ٣٥٦ ط القاهرة سنة ٦

مفكان الشعراء والكتّاب والخطباء ينشئون الطباق والجناس والتشبيه والاستعارة شاعر بن بطرافتها وقوتها وجمالها من غير أن يضعوا لها اصطلاحاً علمياً، كذلك كان القرآن المثل الأعلى في هذا الاستعمال من قبل أن يُعنى العلماء باستقصاء حوصف (بديع القرآن) كما فعل ابن أبي الإصبع أخيراً .

وجاء العصر العباسي الأول، وظهر فيه من شعراء البديع بشار بن بُرد المتوفى سنة ١٦٧ هـ، ومسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨ هـ وأبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ هـ وابن الرومي المتوفى سنة ٢٨١ هـ والبحري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ وعبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ، وقد تنهت الأذهان إلى مافي شعرهم من طرائف الصنعة البديعية، واندفع فيها بعضهم إلى درجة الإفراط كأبي تمام، ووقف فيها بعضهم إلى حد القصد كالبحري وابن المعتز، وادّعى بعضهم أنهم مخترعو هذه الفنون ومبتدعوها، فجاء ابن المعتز للرد عليهم في كتابه (البديع) .

وهنا نقف لناخذ بيد هذه الكلمة (البديع) في ميدان المفاهيم العلمية أو الببائية، بعد أن نوّنها بيرونها في المجال الفني، ولئن صحّ ما زعم الرواة كان مسلم بن الوليد انشاعر هو أول من سمى هذا النوع بالبديع واللطيف^(١) واستعمله في شعره، وتبمه طائفة من الشعراء أشهرهم أبو تمام .

ومع ذلك فلعلّ الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ من أول من دوّن واستعمل هذه الكلمة استعمالاً نقدياً علمياً وإن لم يخرج بها في هذا الاستعمال عن معنى الجودة والطرافة فقد روى قول الأشهب بن رميلة^(٢) :

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج ١٩ من نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٠١٩ ز لوحة ٧١ وديوانه طبع ليدن ٢٣٩ .
(٢) البيان والتبيين ٤ : ٥٥ .

مُهم ساعدُ الدهر الذي يُتَقَى به وما خيرُ كفٍّ لا تنوء بساعدِ
ثم فسره بقوله : قوله : مُهم ساعد الدهر ، إنما هو مثيل ، وهذا الذي تسميه
الرواة البديع وقد قال الراعي ^(١) .

مُهم كاهلُ الدهر الذي يُتَقَى به ، ومنكبه إن كان للدهر منكبٌ
وقد جاء في الحديث «موسى الله أحدٌ ، وساعد الله أشدٌ» .

والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كلَّ لغة ، وأربت على كل
لسان . والراعي كثير البديع في شعره ، وبشّار حسن البديع كذلك ، والمتابى
يذهب شعره في البديع ^(٢) :

ومعنى ذلك أمران :

الأول : أن الجاحظ لم يكن أول من أطلق هذا اللفظ (البديع) على هذه
الفنون البيانية ، وإنما نقل ذلك عن الرواة واستعملها فيما ألف .

الثاني : أن هذا اللفظ أطلق إطلاقاً على الجديد الطريف من هذه الصور
والتماييز البلاغية ، فقد أطلق هنا على الاستعارة في قول الشاعر «ساعد الدهر»
ويقول الجاحظ في موضع آخر وهو يتحدث عن كثوم بن عمرو المتابى : «وعلى
ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع بقول جميع من يتكاف مثل ذلك من شعراء
المولدين كنجو منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباهما ، وكان
المتابى يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن في المولدين أصوبُ بديعاً من بشار
وابن هرمة ^(٣)»

وهؤلاء الذين ذكرهم الجاحظ من الشعراء كانوا يعتمدون على فنون بيانية
تدخل فيها سمي أخيراً «علوم البلاغة» من غير تخصيص بأحدها ، وإن غلبت

(١) البيان والتبيين ٤/ ٥٥ .

(٢) البيان والتبيين ٤/ ٥٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ٥٤ — ٥٥ .

هذه الفنون على ما ورد بمد في علمي البيان والبديع من « استمارة وتشبيه وطباق
وجناس ونحوها »

وتكلم الجاحظ تحت اسم « قطع من البديع » فقال^(١) :
وقطعة من البديع كقوله :

إذا حداها صاحبي ورجعما وصاح في آثارها فأنعمما
يتبعن منهن مجللا أنلما^(٢) أزمك في ماء الماوى منقما
وقال الراجز في البديع المحمود :

قد كنت إذ جبل صباك مدمش^(٣)

وإذ أهاضب^(٤) الشباب تبش^(٥)

ومن هذا البديع المستحسن منه قول جحجر بن خالد بن مرثد^(٦) :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد كفعل أبي قابوس^(٧) حزمًا وفائلا
يساق الغمام الفر من كل بلدة إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فأصبح منه كل واد حلتته

وإن كان قد خو^(٨) الرايب^(٩) سائلا

(١) الحيوان للجاحظ ٥٧/٣ وما بعدها .

(٢) الجلال بضم الجيم : العظيم ، والأنعم : الطويل العنق (٣) أراد بها « مدمج » فأبدل الجيم
شينا مكان الروى ومى لغة .

(٤) أهاضب : جمع أهضوبة ، ومى الدفعة من المطر .

(٥) تبش : تدفع ما بها من الماء .

(٦) شاعر جاهلي كان معاصرا لعمر بن كلثوم (حيوان ٥٨/٣) .

(٧) كنيته النعمان بن المنذر .

(٨) خوى النجم : سقط ولم يطر في نوءه ، وكان العرب يستدلون على المطر بالنجوم .

(٩) الرايبم : النجوم التي يكون بها المطر في أول الأنواء .

فإن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَدَى
ونُضجِي قُلُوصُ الحَدِيدِ جَرَبًا حائلًا
فلا مَلِكٌ ما يلفنك سميهِ ولا سُوقَةٌ ما يمدحنك باطلا
ومعنى ذلك أن الكلمة كانت تطلق على نحو الاستمارة والتشبيه من كل
جديد غريب .

وقد تنبّه الجاحظ مع ذلك إلى فنون بدئية أخرى، وإن لم يطلق عليها هذا
اللفظ ، منها :

الاستمارة ^(١) ، التشبيه ^(٢) ، الاحتراس ^(٣) ، حسن التقسيم ^(٤) ، السجع ^(٥)
الكناية ^(٦) ، الازدواج ^(٧) ، الأسلوب الحكيم ^(٨) ، الإيجاز ^(٩) ، الارصاد ^(١٠)
والتسليم ، الاقتباس ^(١١) ، المساواة ^(١٢) .

ويظهر أنه في عهد الجاحظ جرت كلمة (بديع) وهشتقاتها وما يقاربها في المعنى
على ألسنة وأقلام العلماء والأدباء وصفا للمعاني والصور الغريبة الطريفة أو الجيدة
حتى صارت أشبه بالاصطلاح الذي يدل على الجديد المستحسن في البيان العربي ،
فهذا أبو العباس البردالتوفى سنة ٢٨٥ هـ ورد في كتابه الكامل بيتي الفرزدق ^(١٣) :

(١) البيان والتبيين ١/ ١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٢٢٨ .

(٤) المصدر نفسه ١/ ٢٣٨ .

(٥) المصدر نفسه ١/ ٢٨٥ .

(٦) المصدر نفسه ٢/ ١١٦ .

(٧) المصدر نفسه ٢/ ١١٦ .

(٨) المصدر نفسه ٢/ ١٤٧ .

(٩) المصدر نفسه ١/ ٩٦ .

(١٠) المصدر نفسه ١/ ٩٦ .

(١١) المصدر نفسه ٢/ ٦ .

(١٢) المصدر نفسه ١/ ٩٢ .

(١٣) المصدر نفسه ١/ ١٠٦ وديوانه ٢ : ١٢٣ ط أوروبا والأغاني ١ : ٣٢٦ ط

دار الكتب المصرية .

وَرَكِبَ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عَنْدهُمْ لَهَا رِزَّةٌ مِنْ جَذْبِهَا بِالعَصَابِ
سَرَوْا بِمَخِيطُونَ الرِّيحَ وَهِيَ تَلْهُمُهُمْ إِلَى شُعْبِ الْأَكْوَارِ ذَاتِ الْحَقَائِبِ
إِذَا آنَسُوا نَارًا يَقُولُونَ لَيْسَ بِهَا وَقَدْ حَصِرَتْ أَيْدِيهِمْ نَارٌ غَالِبٌ
وَأَيَّاتُ نُصَيْبٍ :

أَقُولُ لِرَكِبٍ صَادِرِينَ لَقِيَتُهُمْ قَفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ وَمَوْلَاكَ قَرَبُ
قَفُّوا خَبَرُونِي عَنْ سَلَامَانَ إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانٍ طَالِبُ
فَمَا جُؤَا فَاثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكْتُوا أَنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ
نَمَّ يَتَبَمُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَهَذَا فِي بَابِ الدَّحِ حَسَنٌ وَمَتَجَاوَزٌ وَمُبْتَدِعٌ لَمْ
يَسْبِقْ إِلَيْهِ .

وفي الجزء الثاني من كتابه هذا يعقد باباً للتشبيهات يصدِّره بقوله ^(١) :

« هذا باب طريف يذكر فيه ما للمرب من التشبيه المصيب ، ثم يورد أمثلة
يصفها بقوله : التشبيه المجيب أو الحسن أو التجاوز أو القريب أو الطريف
ونحو هذه الصفات التي تتصل بمعنى (البديع) كما ورد في معاجم اللغة
وفي عبارات الجاحظ ، وقد خطأ البرد في هذا المجال خطوة فجعل « التشبيه » واسماً
بحيث يشمل « الاستمارة » وذلك حيث يقول : ومن تشبيههم التجاوز الجيّد
النظم ما ذكرناه ، وهو قول أبي الطيّم حان القيني ^(٢) :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوَجُوهُهُمْ

دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزَعَ ثاقِبُهُ

وهكذا يسير المبرّد فيقول في كامله ^(٣) : « كلام طريف » وهذا باب تجتمع
فيه طرائف من حسن الكلام وَجَيِّدُ الشَّعْرِ وَسَائِرُ الْأَشْثَالِ ، وهذا باب طريف

(١) ٣٥/٢

(٢) ١٠١، ٨٨/٢

(٣) ٩١، ٩٠/٢

من أ شمار المحدثين إلى نحو ذلك مما يدور حول معنى (البديع) في الاستعمال الأدبي الجديد .

ونسكر هنا ما قلناه آنفا بضدد إيراد الشواهد التي أطلق عليها لفظ (البديع) عند العلماء إراداً في نسق تاريخيٍّ لعلنا ننهي بهذا اللفظ إلى وضعه الاصطلاحي الحديث ، وأما الفنون البديعية نفسها فإنها تجري على ألسنة الشعراء والكتّاب والخطباء إنشاءً وتجويداً ، ولعلها تستشرف إلى من يتوجّها بعنوان يضمه لها عن وعي وضماً علياً ثابتاً ، فلتتقدّم في سبيلنا ولنصل إلى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وهو من معاصري الجاحظ والمبرد ، فلا نجد بهمداً عن صاحبيه فإنه يقول ^(١) : « إن الشعر يُختار ويُحفظ لأنه غريب في معناه كقول الشاعر :

ليس الفتى بفَتَى لا يُستضاء به ولا تكون له في الأرض آثارُ

وكقول الحكم بن عُبَيدل أو غيره في مجوسى ساق عنه صدّاقا فقال :

شهدتُ عليك بطيبِ المشاشِ ^(٢) وأنتَ بحرٌ جوادٌ رخصمٌ

وأنتَ سيّد أهل الجَحيم إذا ما ترَدَّيتَ فيمن ظلمُ

نظيراً لهامانَ في قَمَرِها وفرعونَ والكنتى بالحكم ^(٣)

ويصفه بأنه كثير الوشى ، لطيف الممانى ، إذ كان كثير الصور البيانية والبديعية كقول حسين بن مطير في السحابة :

كثرتْ لكثرة قَطْرِه أطباؤه فإذا تحلَّب فاضتْ الأطبَاءُ ^(٤)

(١) الشعر والشعراء ١/ ٣٢ .

(٢) المشاش بضم الميم : رهوس النظام مثل الركبتين والمرتقين والتكبين ، وفي صفة النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان جليل المشاش » ، اللسان مادة « مشش » باختلاف في الرواية . وفسره محقق الحيوان « بكرم النفس » . والنخض السيد المحول المعطاء .

(٣) الحكم : اسمه عمرو بن هشام بن المنيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة ابن كعب بن لؤى ، وله كنيستان : أبو جهل ، وأبو الحكم وقد غلبت الأولى على الثانية ، وكان رأساً من رهوس الشرّكين انظر الحيوان ١٥٩/٥ .

(٤) أطباؤه جمع طبي بضم الطاء وسكون الباء : وموحدات الضرع من كل ذى حافر =

(م - ٢ - بديع القرآن)

وله رَبَّابٌ هَيَبٌ لَرَفِيفِهِ قبل التَّبَعِثِ دِيمَةٌ وَطَفَاءٌ (١)
وَكُنَّ بَارِقَهُ حَرِيقٌ تَلْتَقِي رِيحٌ عَلَيْهِ عَرَفَجٌ وَأَلَاءٌ (٢)
وَكُنَّ رَيْبُهُ وَلَمَّا بِحَتْفَلٍ وَذَقُ السَّمَاءُ عَجَاجَةً كَذَرَاهُ (٣)
مُسْتَضْحِكٌ بِلَوَامِعٍ مُسْتَمِيرٌ بِدَمَاعٍ لَمْ تُتَمَرِّهَا الْأَقْدَاءُ (٤)
فَلَهُ بَلَا حُزْنٍ وَلَا بِمَسْرَةٍ ضَحِكٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ وَبَكَاءُ
حَيْرَانٍ مُتَّبِعٍ صَبَاحٍ تَقُودُهُ وَجَنُوبُهُ كِنْفٌ لَهُ وَوِعَاءُ (٥)
غَدَقٌ يُنْتَجِجُ فِي الْأَبَاطِحِ فُرْقًا تَلِدُ السَّيُولَ وَمَالَهَا أَسْلَاءُ (٦)
غَرٌّ مَحْجَلَةٌ دَوَالِجٌ مُصَمَّنَتٌ حَمْلُ اللَّاقِحِ وَكَلَّهَا عَذْرَاهُ (٧)
مُسْحَمٌ فَهِنْ إِذَا نَظَّمْنَ فَوَاحِمٌ سَوْدٌ وَهِنْ إِذَا ضَحِكْنَ وَصَاهُ (٨)
لَوْ كَانَ مِنْ الْجَحِّ السَّوَاحِلِ مَاؤُهُ لَمْ يَنْقُ فِي الْجَحِّ السَّوَاحِلِ مَاؤُهُ

== وخف وظلف وسبع ، وقد استعار الشاعر الكلمة للمطر على التشبيه ، اللسان ٣٢٧/١٩
مع اختلاف الرواية .

(١) رباب : جهم ربابة ، وهى السحابة البيضاء . هيب : مدلى . الرفيف : التلاؤ
والبريق . التبعق : الإططار بشدة . الديمّة : المطر الدائم فى سكون وطفاء : الديمّة الخفيفة .

(٢) العرفج : ضرب من النبات سهل سريع الانتقاد . الألء : شجر حسن المنظر
مر الطعم .

(٣) ريق المطر : أنفله . الودق : المطر .

(٤) لم تمرها : لم تسلمها ، من قولهم مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بيدى لينا .

(٥) كنف بكسر الكاف وسكون النون : وعاء يكون فيه أداة الراعى ومتاعه ، أو
الوعاء الذى يكنف ماحل فيه أى يحفظه .

(٦) الفرق بضم الفاء وتشديد الراء : جمع فارق وهى السحابة المنفردة لا تختلف ،
سميت بذلك تشبيها بالفارق من الإبل ، وهى التى تفارق إلهما فتنتج وحدها ، الأسلاء : جمع
سلى ، وهو الجلد الرقيق الذى يخرج الولد من بطن أمه مفوقا فيه .

(٧) الدوالج : الثلثات بآاء .

(٨) مسح : سود .

ثم يفتنه إلى فنون دخلت بصدق علم البديع كالتوشيح^(١)، والالتفات^(٢)،
والكناية^(٣)، والتكرار^(٤)، ونسكهم عن الاستعارة^(٥)، والإفراط في الصفة^(٦)،
والمحاز^(٧).

— ٩ —

وتبقى هذه الفنون البليغة والأدبية تزداد، وتطنى على الأساليب الشعرية
والثرية، ولكسها حارة تبحث عن مجمع شملها، أو يضع عنوانها الأول
في مؤلف خاص لملها تجتمع حوله أو تحته، فتأخذ بذلك وضمها البلاغى أو
النقدى الدقيق أو المقارب، وتميش ذات اعتبار علمى فنى، فإذا بأمر عباسى
يحقق لها هذا الأمل، ويضم اللبنة الأولى لهذا البناء البلاغى الذى انسع ثم
نسق فصار علوم البلاغة العربية المعروفة، ذلك هو عبد الله بن المعتز التوفى
سنة ٢٩٦ هـ صاحب كتاب (البديع)^(٨). وقد اعترف بأن هذه التسمية ليست
من ابتكاره وإنما هي من وضع المحدثين، ومن الخير أن نتركه ليسين أى
حلقة هو في تاريخ هذه الكلمة (البديع) من الناحيتين العلمية والفنية.

قال في صدر كتابه هذا: «قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بضع ما وجدنا
في القرآن، واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ — وكلام الصحابة والأعراب
وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون (البديع) ليُعلم

(١) الشعر والشعراء ١/٣٦.

(٢) تأويل مشكل القرآن تحقيق الأستاذ سيد أحمد صقر ٢٢٣.

(٣) » » ١٩٩.

(٤) » » ١٨٠.

(٥) » » ١٠٢.

(٦) » » في أثناء حديثه عن الاستعارة.

(٧) » » ٧٧.

(٨) نشر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٣٥ على نسخة في مكتبة الاسكوريال
بتحقيق المستشرق الروسى الأستاذ كراتشوفسكى ثم طبع في مصر سنة ١٩٤٥ بتحقيق
الأستاذ عبد المنعم خفاجى.

أنَّ بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيَّاهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ،
ولكنه كثر في أشعارهم فُصِّرف في زمانهم حتى سمِّي بهذا الاسم ، فأعرَبَ
عنه ودلَّ عليه ...

والبدیع^(١) عند ابن المعتز خمسة أنواع : الاستمارة^(٢) ، والتجنيس^(٣) ،
والمطابقة^(٤) ، ورد أعجاز^(٥) الكلام على ما تقدمها ، والذهب^(٦) الكلامي ،
وبذلك كملت عنده أبواب البدیع .

ثم يذكر بعض محاسن الكلام والشعر فيمده منها ثلاثة عشر نوعا هي :
الالتفات^(٧) ، والاعتراض^(٨) ، والرجوع^(٩) ، وحسن^(١٠) الخروج ، وتأكيده
المدح^(١١) بما يشبه القم ، وتجاهل^(١٢) المارف ، والمهزل^(١٣) الذي يراد به الجد ،
وحسن التضمين^(١٤) ، والتعريض^(١٥) ، والكناية ، والإفراط^(١٦) في الصفة ،
وحسن^(١٧) التشبيه ، وإعنائ^(١٨) المرء نفسه (لزوم ما لا يلزم) ، وحسن^(١٩)
الابتداء ، ولا مانع عنده أن تدخل هذه الأنواع تحت اسم (البدیع)
ومن ذلك نرى ما يأتي :

أولا : أن ابن المعتز أول من ألف في هذا الفن .

(١) البدیع ط مصر ١٥ :	(٢) البدیع ط مصر ١٩ :
(٣) » » ٥٥ :	(٤) » » ٧٤ :
(٥) » » ٧٤ :	(٦) » » ١٠١ :
(٧) » » ١٠٦ :	(٨) » » ١٠٨ :
(٩) » » ١٠٨ :	(١٠) » » ١٠٩ :
(١١) » » ٢١١ :	(١٢) » » ١١١ :
(١٣) » » ١١٢ :	(١٤) » » ١١٢ :
(١٥) » » ١١٥ :	(١٦) » » ١١٦ :
(١٧) » » ١٢١ :	(١٨) » » ١٣٢ :
(١٩) » » ١٣٧ :	

ثانياً : أن ما ذكره يدخل الآن في علوم البلاغة وبخاصة البيان والبديع .

ثالثاً : أن هذا الاصطلاح (البديع) قد سبق إليه .

رابعاً : أن فنون البديع نفسها من الناحية الفنية قد صاحبت الشعر من أقدم عهوده وإن كثرت على عهد ابن المعتز ، وصيغت عن وعي ، وأن بعض الشعراء إلى عهده قد غلا في استعمالها ، وأن بشاراً ومن تبعه كانوا يمتزون بأنهم أصحاب هذا المذهب الصناعي ، فردّ عليهم ابن المعتز بأن هذا (البديع) قديم لا فضل لهم في ابتكاره وإن كانت لهم صفة ابتكاره وتصنعه . وقد ألف كتابه هذا سنة ٢٧٤ هـ .

وفي ضوء ما صنعه ابن المعتز في كتابه نستطيع أن نلتفت إلى الوراء لنعرف ماذا كانت تدل عليه كلمة (بديع) عند سابقيه من العلماء والأدباء ، فيبدون لنا أن الأنواع الخمسة الأولى هي التي كانت مشتهرة باسم البديع ينصرف إليها اللفظ إذا أطلق ، وقد ذكر الجاحظ منها الاستمارة ، وعرفها بأنها (تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه) كما ذكر المذهب الكلامي (وهو إيراد حجة المطلوب على طريقة أهل النطق) ثم ذكر الجاحظ من غير هذه الفنون الخمسة (جودة الابتداء ، وجودة القطع ، كما سبق مما حدث بعد تمييز في أسمائها أو معانيها .

كذلك الأمر بالنسبة لابن قتيبة ، فقد ذكر من فنون البديع الالتفات ، والكناية والتعريض ، والاستمارة ، ومن غيرها : التكرار ، والإيجاز ، والإفراط في الصفة ، كذلك كان شأن البرد فقد ذكر من البديع الاستمارة ، والكناية ، والتشبيه ، والالتفات ، وذكر من المحاسن الغلو ، والتجريد ، واللف والنشر كما قدمنا ، وهكذا نجد هؤلاء الثلاثة الجاحظ وابن قتيبة والبرد يشتركون

في التمهيد لما جمع ابن المعتز في كتابه ، ويدكرون فنونا بديعية أخرى لم يذكرها في كتابه (البديع) وإن لم يغلط الباب دونها ، بل تركه مفتوحا لكل ما جدد ويجدد من فنون .

وأمر آخر نلاحظه عند هؤلاء ، ذلك أن هذه الأنواع التي أوردوها تتوزع بين علوم البلاغة في وضعها الأخير في العربية ، وهي : المعاني ، البيان ، البديع .

- ١٠ -

ونتقدم مع هذه الكلمة (البديع) إلى القرن الرابع وقد صارت مصطلحا علميا يدل على هذه الفنون الجديدة الغريبة التي تكسب الكلام حسنا وقوة وبيانا ، نتقدم لنتلقى بقدامة بن جعفر التوفي سنة ٣٣٧ هـ من عاصروا ابن المعتز ، فيجده يتقدم بحدول هذا الاصطلاح ، فيوسم معناه ، ويضيف في كتابه (نقد الشعر) إلى ما ذكر ابن المعتز ثلاثة عشر نوعا وإن لم يسبقها مساق ابن المعتز تحت عنوان (البديع) وهي التقسيم^(١) ، والترصيم^(٢) ، والمقايلات^(٣) ، والتفسير^(٤) ، والمساواة^(٥) ، والإشارة ، أشتلاف اللفظ مع الوزن^(٦) ، والتمثيل^(٧) ، والتوشيح^(٨) ، والإيغال^(٩) ، أشتلاف المعنى مع الوزن^(١٠) ، وائتلاف^(١١) القافية ، والإرداف^(١٢) ، وقد خالفه في التسمية بعض الباحثين ، على أن قدامة أورد أنواعه العشر في مفرض القول في نقد الشعر ، وذكر صفات اللفظ ، وقد كان ذلك تقدما ملحوظا في تقسيم هذه الفنون البديعية إلى لفظية ومعنوية :

(١) نقد الشعر ط الجوائب ٤٦	(٢) نقد الشعر ط الجوائب ١١
(٣) » » ٤٧	(٤) » » ٤٨
(٥) » » ٥٥	(٦) » » ٦١
(٧) » » ٥٨	(٨) » » ٦٣
(٩) » » ٦٣	(١٠) » » ٦٢
(١١) » » ٥٧	(١٢) » » ٥٧

وبأني بعد قدامة في هذا الباب أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ فقد أضاف إلى ما سبق سبعة أنواع هي^(١):

القشطير^(٢) ، والمجاورة^(٣) ، والتطريز^(٤) ، والمضاعفة^(٥) ، والاستشهاد^(٦) ، والتلطف^(٧) ، والمشتق^(٨) ذكرها في كتابه الصناعتين ، ومعنى ذلك أن مدلول كلمة (البديع) أخذ في الإتساع .

ونصل إلى القرن الخامس فنتلقى بابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣ صاحب كتاب (العمدة) في صناعة الشعر ونقده ، فنلاحظ عدة أمور :

أولها : أنه أفرد بابا^(٩) خاصا للمبادئ والمخارج والنهايات ، ولم يمدّها من أنواع البديع خلافاً لمن سبقه من العلماء — عدا أبي هلال العسكري — كذلك أفرد للإيجاز بابا خاصا به ، ولملّ ذلك كان بداءة التحوّل في التفرقة بين الأنواع المتصلة بأصل المعنى ، والأنوع التي تعدّ محسّنا زائداً على أصل الكلام .

ثانها : أنه حاول الفرق بين المخترع والبديع^(١٠) ، فالمخترع من الشعر : ما لم يسبق إليه قائله ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره ، أو ما يقرب منه ،

(١) ظن المؤلف أن هذه الأنواع السبعة من اختراعه ، وأنه لم يسبق إليها ، والحقيقة أنه سبق إلى البعض وسلم له البعض ، وسأبين في هامش كل نوع بإشارة بسيطة مدى سبقه لهذا النوع مكفياً بذلك عن الإطالة التي ليس هذا محلها .

(٢) الصناعتين من ٤١١ وسبقه إليه تطلب باسم (المدل) قواعد الشعر ٢٩ ، والجاحظ تحت اسم مزدوج الكلام البيان والتبيين ١١٦/٢ .

(٣) المجاورة ، الصناعتين ٤١٣ سلم له هذا النوع اسماً ومسمى .

(٤) الصناعتين ٢٧ سلم له هذا النوع وعرف فيما بعد بالتوشيع الطراز اليماني ٨٩/٣ .

(٥) ٤٢٣ ، سلم له هذا النوع ولم يسبق إليه .

(٦) ٤٦٦ تسكلم في آخره بما يدل على أنه داخل ضمن التشبيه وضمن

حسن التعليل .

(٧) ٤٢٧ سلم له هذا النوع .

(٨) ٤٢٧ .

(٩) العمدة ١/١٤٥ .

(١٠) ١٧٥/٢ .

والقديم : هو الجديد ، وأصله في الجبال ، وذلك أن يقتل الجبل جديدا ليس من قوى جبل مُنْقَضَتٍ ثم نقلت مثلا آخر .

والفرق بين الإبداع ، والاختراع ، وإن كان معناهما في العربية واحدا ، أن الاختراع : خلق المعاني التي لم يُسبق إليها ، والإتيان بما لم يكن قط ، والإبداع : إتيان الشاعر بالمعنى المستطرف ، والذي لم يجز المادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر ، فصار الاختراع للمعنى ، والإبداع للفظ ، فاذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمر وحاز قصب السبق .

ثالثها : أنه تصرف في أنواع البديع ضروريا من التصرف منها : نفى الشيء ، بإنجابه ^(١) ، والاطراد ^(٢) ، وقد يأخذ نوعا سبق إليه فيفرعه كالإشارة ^(٣) ، وقد يغير اسم النوع كالتصدير ^(٤) ، وقد أشار إلى أن ابن المعتز سماه (ردّ المعجز على الصدر) ، وقد يفرد بابا للفرقة بين نوعين اختلطا حتى صعب الفرق بينهما كما فعل في بابي (التجنيس) ^(٥) ، والمطابقة) ، وقد يذكر بعقب ذلك أنواعا لا شأن لها بالبديع « كالخشو » ^(٦) و « الاستدعاء » ^(٧) وهما من عيوب الشعر ونحو ذلك ، وهكذا أخذت مفاهيم كلمة (بديع) تخصم للبحث ، والتفريم والنمو مما يؤذن لها بتحول جديد .

وأما أن نسند إليه أنه أضاف إلى فنون البديع خمسة وستين بابا من الشعر كما يقول ابن السبكي ^(٨) فذلك موضع نظر لأنه لم يصف كل هذا الجديد الكثير .

— ١١ —

أما ابن سنان الحفّايجي التوفي سنة ٤٦٦ هـ ، فيمدّد امتدادا لقدامة بن جعفر ، وضع كتابه (سر الفصاحة) وتناول فيه فصاحة اللفظة الواحدة ،

- | | |
|------------------|--------------------------|
| (١) المدة ٦٥/٢ . | (٢) المدة ٦٦/٢ . |
| (٣) » ٢٠٦/١ . | (٤) » ٢٠/٢ . |
| (٥) » ١٢/٢ . | (٦) » ٥٥/٢ . |
| (٧) » ٢٥٨/٢ . | (٨) شروح التلخيص ٤٦٧/٤ . |

واشترط لها ثمانية أشياء ، ثم أخذ يذكر صفات الفصاحة في الألفاظ المؤلفة^(١) ، وفي أثناء ذلك عرض للأشكال البديعية ، وهذا المنهج نفسه وهو تقسيم الأوصاف إلى ما يتصل بالكلمة والكلام إنما كان امتدادا لمنهج قدامة في نقد الشعر ، ثم يُبرز هذه المسألة وهي : أن من أنواع البديع ما مرجه اللفظ ، ومنها ما مرده المعنى ، ومنها ما يتصل بهما معا ، ولعل ذلك أساس ما انتهت إليه هذه الأنواع من أنها عسنتات لفظية ، وأخرى معنوية .

فتكلم عن الألوان البديعية التي تنشأ من وضع الألفاظ في مواضعها^(٢) ، وهي الاستعارة ، والتوشيح أو التسميم ، وحسن الكناية ، والمناسبة بين الألفاظ ، والسجع ، والازدواج ، والترصيع ، واللف والنشر ، والجناس . وهذه الألوان البديعية الانظمية .

ثم تكلم عن الأنواع التي تأتي من مناسبة الألفاظ للمعاني^(٣) وهي : الطباق ، والتبديل ، والإيجاز ، والاختصار ، وحذف الفضول ، والتمثيل ، وصحة التشبيه ، وصحة المقابلة في المعاني ، وصحة التناسق والنظم الذي عرف أخيرا باسم « حسن التخلص » ، وصحة التفسير ، وكمال المعنى ، وهو ما عرف بالتميم ، والمبالغة والفلو ، والتحرز مما يوجب الطعن ، وهو ما عرف بالاحتراص والتكميل ، والاستدلال بالتعليل .

والذي لاشك فيه أن ما فعله ابن سنان من التفرقة بين اللفظي ، والمعنوي كان من أهم الدعائم التي بني عليها التأخرون تقسيمهم الألوان البديعية إلى لفظية ، ومعنوية .

(١) سر الفصاحة ٦٠ ، ٨٥ .

(٢) د د من ١١٠ — ١٨٣ .

(٣) د د من ١٨٨ — ٢٦١ .

ثم يتكلم عن الترتيب^(١) ، والجناس^(٢) ، والمطابق^(٣) ، والتبديل^(٤) ، والإيجاز^(٥) ، والمساواة^(٦) ، والتذليل^(٧) ، والإشارة^(٨) ، والتمثيل^(٩) ، وصحة التقسيم^(١٠) ، والمبالغة^(١١) ، وصحة التشبيه^(١٢) ، وصحة المقابلة^(١٣) ، وحسن النسق^(١٤) ، وصحة التفسير^(١٥) ، والاستدلال^(١٦) بالتمثيل .

وهكذا نجد أنه يتفق مع السابقين في تعريف هذه الفنون أو يختلف معهم مما لا مجال لبيانها في هذا التمهيد . إلا أننا ما زلنا نرى مسائل (البديع) مختلطة فيها من البيان ، والمآني ، والبديع على حسب أوضاعها الأخيرة ، ومعنى هذا أنها لم يتميز بعضها عن بعض بصورة حاسمة إلى الآن .

— ١٢ —

ولا يبعد الإمام عبد القاهر الجرجاني عن الخفاجي ، فقد أدركه إذ توفي عبد القاهر سنة ٤٧١ هـ . بعد ما ترك لنا كتابين في البلاغة العربية هما : (أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز) وبميننا هنا أن تبين فيم استعمل شيخ البلاغة كلمة (بديع) .

أما في كتابه (أسرار البلاغة) فقد أطلق اسم « البديع » على التشبيه ،

- | | |
|--------------------|--------------------|
| (١) سر الفصاحة ١٨١ | (٢) سر الفصاحة ١٨٢ |
| (٣) » » ١٨٨/ | (٤) » » ١٩٢/ |
| (٥) » » ١٩٤/ | (٦) » » ١٩٥/ |
| (٧) » » ١٩٨ | (٨) » » ٢٠٨ |
| (٩) » » ٢٢١ | (١٠) » » ٢٢٤ |
| (١١) » » ٢٥٦ | (١٢) » » ٢٣٥ |
| (١٣) » » ٢٥١ | (١٤) » » ٢٥٣ |
| (١٥) » » ٢٥٤ | (١٦) » » ٢٥٩ |

والاستمارة ، والتمثيل^(١) وعلى سائر أقسام اليدهم فذكر منها التجنيس^(٢) ،
والخشو المفيد وغيره ، والطباق ، والمجاز^(٣) اللغوي والعقلي ، وحسن^(٤) التمثيل ،
ويريد بها الجديد والحسن ، والطريف ، ويحاول دائما أن يقول إن الحسن فيها
يأتى من جهة المعنى ، وهكذا لا تزال كلمة البديع تطلق إطلاقا عاما على هذه
الأنواع المشتركة بين علوم البلاغة في صورتها الأخيرة .

وأما (دلائل الإعجاز) فما هو مقطوع به أنه ألف بعد (أسرار البلاغة) ، لأن الإمام
عبد القاهر كثيرا ما يسمد في أسرار البلاغة باستيفاء موضوعات إذا بحثنا عنها
وجدناها في دلائل الإعجاز .

فتلا محمده يقول في أسرار البلاغة : (وأزبدك حينئذ إن شاء الله كلاما
في الفرق بين ما يدخل في حيز قولهم : « خير الشعر أكذبه » وبين ما لا يدخل
فيه مما يشاركه في أنه اتساع وتجاوز فاعرفه .

وقد يبرر بوعده في دلائل الإعجاز في أثناء الحديث عن الشعر ، وغير ذلك
كثير .

والسبب الذى دفعه إلى تأليف هذا الكتاب يؤخذ من عنوانه ، فقد قصد
الكشف عن دقائق إعجاز القرآن ، وتبيين الوجوه التى كان بها ممجزا ، ولقد
وجد عبد القاهر أنه من اللازم عليه أن يمرض فيه لكل ما يوصله إلى هذه الغاية
التي قصدها ، ولأجل وصوله إليها أنجه إلى هدم نظريتين وجدتا قبله ، وأكسبتا
أنصارا في عصره ، وهما نظريتا اللفظ والمعنى ، ثم يخلص إلى أن روعة الكلام
وإبداعه ليس في اللفظ وحده ، ولا في المعنى وحده ، وإنما موطنهما النظم ،

(١) أسرار البلاغة ١٤ — ١٥ ، ٣٥١ — ٣٥٧ .

(٢) » » ٤ — ١٤ .

(٣) » » ٣٠٣ .

(٤) » » ٢٥٨ .

ثم يبحر الأدلة ، ويمقد الفصول الكثيرة لدعم هذه النظرية وتثبيت أركانها ، وجعلها مبحث الجلال ، وموطن الإعجاز ، ولم يقف عند هذا ، بل عرض لمباحث عرفت من قبله في البديع ، كالإيجاز ، والسكناية ، والتمريض ، والتمثيل ، والاستعارة ، وتعرض لأكثرها في أسرار البلاغة ومباحث محلها علم الماني الآن ، كالفصل والوصل ، والقصر ، والتقديم والتأخير ، والحذف ، ولذلك اعتبر عبد القاهر الواضع الأول لأساس علم الماني بمدأبي هلال العسكري ، ولكنّه لم يسمّ ما ذكره من البديع هنا بديما ، كما لم يسمّ ما عرف في علم الماني بالماني ، بل أطلق على الجميع (بيانا) حيث يقول : ^(١) ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا ، وأسبق فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب ورذاوا ، كرم إنتاجا ، وأنور سراجا من (علم البيان) الذي لولاه لم نر لسانا يحرك الوشني ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر وينفث السحر .

ومما لا شك فيه أن هذا هو عين ما عرف عن البديع ، وما تفيد هذه الكلمة من المعنى (الطريف والجديد والحسن) .

وإنا إذ نراه هنا يسميه (بيانا) نراه في موطن ^(٢) آخر يسميه (علم الفصاحة والبيان) والفصاحة ، والبيان ، والبلاغة ، والبراعة التي هي معنى الإبداع والبديع وما شا كلاهما عند عبد القاهر ألفاظ متواردة على معنى واحد ، كما صرح بذلك . ^(٣)

ومن هنا نرى أن الأنواع التي سمّاها في أسرار البلاغة « بديما » سماها في دلائل الإعجاز (بيانا) فتكون اللفظتان عنده متقاربتى المعنى ، فيكون معنى البديع لا يزال يحتفظ بمعناه الذي عرف به في أسرار البلاغة .

(١) دلائل الإعجاز ٤ — ٥ .

(٢) » » ٣٤٩ .

(٣) » » ٣٥ .

وهكذا كان أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ يستعمل كلمة (بديع) بمعنى الجديد الطريف الذي يكسب المعنى وضوحاً وقوة ، واللفظ حلاوة وجالا ، فأطلقها على خمسة وتسمين نوعاً جمعها في كتابه (البديع ونقد الشعر) ^(١) اعتمد فيها على من سبقه من العلماء كابن المعز ، وأبي هلال العسكري ، وابن رشيق ، وغيرهم ، فأطلقها على التجنيس ^(٢) ، والتطريز ^(٣) ، وتجاهل المارف ^(٤) ، والاستمارة ^(٥) ، والتطبيق ^(٦) ، والاحتراض ^(٧) والاعتراض ^(٨) ، وهكذا إلى آخر كتابه .

- ١٣ -

ولعل السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ أول من حاول في وضوح أن يفصل بين هذه البحوث البديعية ، وأن يتقدم بها خطوة لتتوزع بين علوم البلاغة العربية (المعاني ، والبيان ، والبديع) فقد ألف كتابه (مفتاح العلوم) وقسمه أقساماً ثلاثة :

القسم الأول : تكلم فيه عن علم الصرف .

والقسم الثاني : تكلم فيه عن النحو .

وأما القسم الثالث : فتكلم فيه عن المعاني ، والبيان ، ولعله أخذ هذه التسمية

(المعاني) من تعريف عبد القاهر الجرجاني للنظم الذي تناول مباحث علم المعاني ^(٩)

فقال السكاكي : « ليس النظم إلا معاني النحو ، ولعله أيضاً أول من أطلق

(١) نسخة مخطوطة وعقوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥ بلاغة .

(٢) بديع ابن منقذ ٦ (٣) بديع ابن منقذ ٣٣

(٤) ٤٧ » » (٥) ٢٠ » »

(٦) ٥٠ » » (٧) ٢٨ » »

(٨) ٦٥ » »

(٩) دلائل الإعجاز ٤٠ والمفتاح ٧٠

(علم البيان) على التشبيه ، والجاز ، والسكناية ^(١) ، ثم بين منزلة علم البيان من علم الماني فقال : « إنها بمنزلة المركب من الفرد » ، وأوجب لذلك تأخير البيان عن الماني ^(٢) . وهكذا نجد العقلية الفلسفية ، أو العملية أخذت تسيطر على هذه البحوث البديعية ، وتحددتها وتفصلها لتتأخر وتصح أقسامها ، أو علوما مختلفة ، وبعد ذلك يتقدم السكاكي إلى سائر الأنواع البديعية فيقسمها محسنات يُبصر إليها لقصد تحسين الكلام ^(٣) وهي قسمان :
القسم الأول أنواع : كالطائفة ^(٤) ، ومراعاة النظير ، واللف والنشر ، والتقسيم ، والإيهام .

وتحت القسم الثاني : التجنيس ، والترصيع ، والقلب ، ورد العجز على الصدر ، وهكذا ينتهي الأمر عند السكاكي إلى :

- (١) تقسيم هذه الأنواع البديعية إلى أقسام رئيسية ثلاثة .
- (٢) وضع اسم (علم الماني) لمباحث الجملة وما إليها . واسم (علم البيان) لمباحث الصورة .

(٣) وترك سائر الأنواع تحت اسم المحسنات التي قسمها قسمين : معنوية ولفظية ، وبقيت خطوة صغيرة ، فجاء الخطيب القزويني المتوفى سنة ٧٨٠ هـ وخطا هذه الخطوة الأخيرة ، فوقف عند ما سماه السكاكي بالمحسنات ، واحتفظ له بذلك الاصطلاح القديم ، وسماه (علم البديع) وبذلك أخذت علوم البلاغة وضعها الأخير ، فتحدت موضوعاتها ، وانفصلت أقسامها ، ووضعت أسمؤها : الماني ، والبيان ، والبديع ، وعلى ذلك سارت الدراسة إلى الآن ... كان ذلك في (تلخيص المفتاح) للخطيب القزويني .

(١) مفتاح المعلوم ١٧٦ وما بعدها

(٢) » » ١٧٩

(٣) » » ١٧٩ - ١٨١ - ١٣٢

(٤) » » ٢٢٥ - ٢٢٩

وفي نحو الوقت الذي كان السكاكي يبذل جهده لتصنيف هذه البحوث البدئية ، وعمهد السبيل لنفسه ، ولتأبى الخطيب القزويني لوضع علوم البلاغة وضعها الأخير أقول : في نحو هذا الوقت كان هناك عالمان آخران لا يزالان يهيجان منها أديبا عاما ، أحدهما : ابن أبي الإصبع صاحب (تحرير التجميع ، وبديع القرآن) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وثانيهما : ضياء الدين بن الأثير صاحب (المثل السائر في أدب السالكين والشاعر) المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، أما ابن أبي الإصبع فقد ألزم في فهم كلمة (البديع) مذهب من سبقه من العلماء بأن أطلقها على جميع الأنواع الطريفة التي دخلت فيما بعد في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) ، وسيكون موضوع دراستنا بالتفصيل فيما بعد ، فلنتركه هنا إلى حينه .

وأما ابن الأثير ، فإنه في كتابه (المثل السائر) قد نهج في هذه البحوث منها ما يتحرف بمض الشيء عن منهج الباحثين من سابقه ومناصريه .

(١) أول ذلك أنه سمي هذه البحوث (علم البيان) ، ولمه لم يتفرد بهذه التسمية ، فإن كثيرا من الناس يسمون العلوم الثلاثة (علم البيان) ، كما أن منهم من يطلق هذه التسمية على البيان ، والبديع ، وقد كان الأمر من قبل أن أن تسمى كلها بديعا .

(٢) وثاني شيء أنه قصر كتابه على مقدمة ومقالتين ، فالمقدمة في أصول علم البيان ، والمقالتان في فروع الأولى : في الصناعة اللفظية ، والثانية : في الصناعة المعنوية . ولمه هنا أيضا ، متأثر شكليا لا موضوعيا عما عرف عند السكاكي من تقسيم الحسنات إلى لفظية ومعنوية .

(٣) وثالث شيء أنه أورد هذه الأنواع البدئية في المقالتين على أنها أنواع صناعية لفظية ، ومعنوية بأكملها ، ولكنه لم ينس كلمة (البديع) ، فأوردها

إيراداً عربياً أو جزئياً إذ يقول عن المطابقة : « وهذا النوع يسمى البديع أيضا -

وناقض العلماء هذا النوع من حيث تسميته .

(٤) والرايب أنه نزع في دراسته نزعة نقدية وتطبيقية ، فقد حاول أن يرسم طرق تعلم الكتابة ، كما عقد موازنات بين الأدباء ، ونهق كثيراً منهم فيما أنشأ ، وكان له نفوذ في ذلك ، وإن كان ممزراً بنفسه كثيراً .

هذه هي كلمة « البديع » في تاريخ الدراسة البلاغية أوجزنا معانيها في أطوارها المتتابعة لنعرف أين نضع (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع منها ، ولا يهون أحدنا هذا التطواف بين طبقات المؤلفين ، وعيون المؤلفات ، إذ أن ذلك من شأنه أن يلقى ضوءاً على مباحث ابن أبي الإصبع من وجه ، ويبين صلاتها بغيرها من وجه آخر ، ويعين الباحثين في تاريخ البلاغة العربية آخر الأمر .

على أن هذه الصورة الأخيرة للبلاغة العربية ليست الوضع الذي يحسن السكوت عليه ، فقد أشار أسلافنا إلى أن البلاغة من العلوم التي لم تنضج .

وهذا ما يفسر لنا هذا المنهج الجديد لدرس البلاغة العربية ، وهو منهج نشير به الدراسات الجامعية الآن ^(١) ، وهو منهج ينتهي إلى أن البلاغة بابان : الأسلوب والفنون الأدبية ، وفي باب الأسلوب تدخل مباحث المعاني ، والبيان ، والبديع في بعض فصوله وأقسامه ، في حين أن باب الفنون الأدبية جديد في جلته ، ولعل من نتائج ذلك المدول عن هذه الأسماء (المعاني ، والبيان ، والبديع) ووضع البلاغة عندنا وضعاً كاملاً يشبه وضعها في الآداب العالمية فلننتظر .

(١) راجع كتاب الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب الطبعة الرابعة .

الفصل الثاني

في بديع القـ — رآن

- ١ -

أجملنا في الفصل الأول من هذا التقديم تاريخَ كلمة (بديع) منذ نشأتها في الاستعمال اللّغوي، إلى أن استقرت في الاصطلاح البلاغي، دالة على أحد علوم البلاغة كما عرفها العرب ، ذلك هو علم البديع الذي يبحث في محسنات الكلام لفظية ومعنوية .

ونريد في هذا الفصل — من التقديم — أن نجمل القول في تاريخ بديع القرآن ليكون مقدمةً لدرس (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع .

وإذا كان ابنُ أبي الإصبع قد أطلق لفظ (بديع القرآن) إطلاقاً شاملاً يتناول ما في القرآن الكريم من شواهد المعاني ، والبيان ، والبديع مختلطة ، فقد صار من الحق علينا — ونحن نتناول ما كُتبت في بديع القرآن — أن نجمل القول في هذه المؤلفات التي تناولت بديع القرآن بهذا المعنى الشامل أيضاً ، أي هذه الكتب التي كتبت في بلاغة القرآن حتى انتهت إلى المؤلف الذي نتحدث عنه .

وملحوظة أخرى نُشير إليها من الآن، هي أن مباحث البلاغة والنقد الأدبي كانت ترد مختلطة في كتب السابقين ، وكانت ترمي كلها إلى بيان ما في القرآن الكريم من صور البيان ، ووجوه الإعجاز ، فلا تحجب إذاً أن نورد هنا كتباً فيها الغلبة للمباحث النقدية ، وأخرى فيها الغلبة للمباحث البلاغية ، إذ أنها جميعاً ترمي إلى دراسة هذا الجانب اللّغوي الممتاز في القرآن الكريم .

(م — ٣ بديع القرآن)

ولسنا هنا نريد الاستقصاء ، فذلك غير ميسور في مثل هذا التقديم الموجز ،
ولكننا سنقف عند العالم التي تُنير السبيل أمام الدارس إن شاء الله تعالى ،
تاركين الاستقصاء إلى التاريخ المفصل الذي ينبغي أن يُفرد له مؤلف خاص .

- ٢ -

أولاً : بحوث متفرقة :

وأول خطوة من هذه البحوث البديعية تبدو متناثرة في كتب المفسرين
والتكلمين والأدباء الذين حرصوا على أن يبينوا إعجاز القرآن الكريم الذي
جمله الله دليلاً على رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وبرهانا على صدق دعوته ، جامعا
لفنون البلاغة ، حاويا لأطراف الفصاحة ، محكما في نظمه ، إذ تحدى الفصحاء ،
فوقفوا أمام هذا النظم موقف الإعجاب والذهول والحيرة^(١) ، وكذبوا النبي^(٢) ،
وعارضوا القرآن ، ثم لم يلبثوا أن تابوا إلى رشدهم ، ودخلوا في دين الله أفواجا^(٣) ،
ثم جاهد العرب لنشر الإسلام ، فدخلت فيه شعوب شتى - وهم أصحاب
ثقافات متعددة - فلم تلبث هذه الثقافات أن ظهرت في عقائدهم وتفكيرهم في فهم
معاني القرآن ، ففتحوا للخلاف أبوابا ، وظهرت طوائف التكلمين ، والأدباء ،
والمفسرين ، وكان لكل طائفة طريقة خاصة بحسب مذهبها السياسي ، أو الديني ،
وسنفرد كل جماعة بكلمة :

(١) المعتزلة :

كانت هذه الطائفة من أبرز طوائف المتكلمين التي ثبتت في الدفاع عن
الإسلام ، وظهر بطورهم أول كلام منظم عن القرآن ، وبحجز البشر عن الإتيان
بمثله ، وكان منهم من يظن أن الناس يقدرن على الإتيان بمثله ، وبما هو أحسن

(١) انظر أثر القرآن في تطور النقد العربي ٧ .

(٢) الفرقان لابن الخطيب / ٢٩ .

منه في النظم^(١) لولا الصّرفة ، ورأس من قال بذلك واصل بن عطاء البصريّ المتوفّي سنة ١٣١ هـ^(٢) ، ثم تبعه تلميذه ابراهيم بن سيّار النظم البصريّ المتوفّي في سنة نيّف وعشرين ومائتين^(٣) ، مصطنعين ما زعموه التفكير الحر والمناهج العقلية^(٤) .

وخرج على هذا الرأي جماعةٌ من تلاميذ النظام على رأسهم الجاحظ المتوفّي سنة ٢٥٥ هـ الذي كان أدبيا كبيرا من أدباء المتزلة ، كما كان من أئمة البيان ، فقد ألّف كتابا عن نظم القرآن وأسلوبه ،^(٥) لردّ على القائلين بأن القرآن في مقدور العباد الإتيانُ بمثله ، ولكن الله صرّفهم عن ذلك ، وبيان أنّ القرآن معجز للعرب بنظمه وأسلوبه ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ، ولذلك يحتاج للقرآن بقوله في وصف بيانه^(٦) . « وفي كتابنا المنزل ما يدلنا على أنه صدق ، نظمُه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد » . كما أنه فطن أيضا إلى أنّ لألفاظ القرآن ميزةً أزيد مما سبق من حيث النظم ، وهي إتيان بعض ألفاظه مقترنة متصاحبة لا تكاد تفترق ، مثل الصلاة ، والزكاة ، والجوع ، والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس^(٧) ولم يقف أمرُ الجاحظ عند تأليف كتاب يبحث في نظم القرآن وبيان رأيه في بلاغته . بل إنه تسكّم عن أنواع بديعية استخرج أمثلتها من القرآن ، وعرفت هذه الأنواع فيما بعد باسم البديع ، وإن كان الجاحظ لم يضع لها قوانين ، أو يفصلها التفصيل الذي وجدت عليه فيما بعد . فتكلّم عن المجاز وجملة شاملا للاستعارة ، والتشبيه عند كلامه على قوله تعالى : ﴿ أَكَاوُنَ لِلشَّجَرِ ﴾^(٨) وقوله تعالى :

(١) الملل والنحل ٣٩/١ ، الفرق بين الفرق ١٤ ، رسائل الجاحظ/٤٧ .

(٢) لسان الميزان ط الهند سنة ١٣٢٩ (٣) المصدر نفسه .

(٤) روح المعاني للآلوسي ٢٤/١ .

(٥) الحيوان ١/١ ولم يبق من هذا الكتاب إلا اسمه .

(٦) الحيوان ٩٠/٤ . (٧) البيان والتبيين ٢١/١ .

(٨) سورة المائدة آية ٤٢ .

﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾^(١) ، وقوله تعالى : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ^(٢) ، وتكلم عن الإيجاز عند كلامه على كتابه (نظم القرآن) فيقول^(٣) : ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز ، والحذف ، وبين الزوائد والفضول ، والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز ، والجمع بين المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة ﴿ لَا يَصُدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾^(٤) وهاتان الكلمتان قد جمعنا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال : لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ^(٥) جمع بهاتين السكاتين جميع تلك المعاني . ولا شك أن ما قاله الجاحظ من الكلام على (بديع القرآن) كلام غير مقصود لذاته إذ لم يُرِدْ أن يتكلم عن فنّ البديع أو البلاغة ، بل كان يتعمّض لذلك استطرادا ، وتلك طريقته في كتابته ومؤلفاته ، ولكن ما عمله أسندى إلى البيان العربي عامة ، وبديع القرآن وبلاغته خاصة — اليد الطولى بمجهوده التي بذلها في دراسة أسلوب القرآن ، والتي أثمرت ثمرة طيبة في حياة النقد والبلاغة ، لأنه آمن إيمانا لا يساوره شك بأن القرآن في الذروة العليا من البلاغة وأسلوبه مثل أعلى للأسلوب العربي ، ولذا كان يقدم الشاهد القرآني على غيره . وأخيرا نعلم أن طريقة المعتزلة في دراسة بلاغة القرآن أبتدأت بالصرفة وانتهت على يد الجاحظ بأنه بليغ في لفظه ، رائم في أسلوبه ، مشتمل على أنواع بديمية .

* * *

(٢) المفسرون :

كان لهم في تنمية البلاغة ، والكشف عن أسرارها ، وخاصة بلاغة القرآن

(٢) سورة القلم : ٤٢ .

(٤) سورة الواقعة : آية ٢٩ .

(١) سورة النساء آية ١٠ .

(٣) الميوان ٤ / ٢٧٨ .

(٥) سورة الواقعة ، آية ٣٣ .

تصيب ، وإن كان تفسيرهم لغويا في المرحلة الأولى ، وتأويلا لما في القرآن من أمر ونهى ، وإشارة وحدود ، إذ كانت الألسنة قد فسدت ، ولم تستطع كلُّ العقول إدراك أسرار القرآن ، وإبرازُ نكته التي تضمنت شيئا من أسرار جماله ، ووجوه بيانه ، فاضطلم بهذا المعب في تلك المرحلة اللغويون والنحاة الذين سنكلم عنهم فيما يأتي ، وما بين أيدينا من تفاسير القرنين الثاني والثالث الهجري المشحونة بآرائهم خير دليل على صدق ما نقول^(١) ، ويندر أن يمتد بحث على كتاب ألف في القرن الثاني إلا ومجد اسمه يستمر عن ذلك ، فيجد مجاز القرآن ، ومعاني القرآن ، ومقشاه القرآن ، ومشكل القرآن ، ونحو ذلك من الأسماء .

وسوف أعرض لرأى بعض المفسرين الذين تعرضوا لدراسة بلاغة القرآن عرضا موجزا ، لا على سبيل الحصر والإحاطة ، وإنما على سبيل المثال .

١ - فمن هؤلاء المفسرين الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، والحقيقة أن الفراء وإن كان مفسرا ، إلا أنه يُعتبر بحق امتدادا لأبي عبيدة في مجازه ، إذ أن تفسيره (معاني القرآن) مكمل له من الناحية اللغوية ، لأنه وإن كان يبحث في التراكيب والإعراب ، فإنَّ المجازَ يبحث في الغريب والمجاز في كلتا الدراستين تبحث في الأسلوب والتراكيب ، وينطب عليه في دراسته للطابع النحوي ، وهذا أمر طبيعي ، إذ أنه إمام النحو الكوفي كما أنه لم ينس الأسلوب ، ولكنه بجانب كل ذلك لم ينس الدراسة البيانية ، فقد تكلم عن أنواع بدئية في القرآن أثبتها فيه ، ودل على وجودها بذكر أمثلتها فيه فتكلم عن الكناية^(٢) ، والتشبيه^(٣) ،

(١) انظر مقدمة شرح الفصل للزمخشري ٨/١ .

(٢) انظر كلامه على الكلمات « سمعهم وأبصارهم وجلودهم » [سورة فصلت آية ٢٠]

(٣) انظر كلامه على قوله تعالى : « ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل » سورة

الفتح آية ٢٩ .

والجهاز^(١)، والاستمارة^(٢)، وإن لم ينص عليها صراحة ، إلا أن تفسيره يُظهر معناها ، والاتفات^(٣) .

كما أن القراء لم يُغفل موسيقى ألفاظ القرآن ، ولا نظمه ، ولا وزنه ، وأثر كل ذلك في نفوس سامعيه ، وأنه يثير بالفاظه وأسلوبه وجدانهم ، ويرُوع نفوسهم ، وهذا ما امتاز به عن أبي عبيدة^(٤) .

* * *

ب - ثم يتقدم الزمن ، ويتطور التفسير ، وينتقل من التفسير اللغوي إلى الإيضاح ، والتأويل على يد ابن جرير الطبري المفسر المتوفى سنة ٣١٠ هـ الذي انتقل بدراسة بلاغة القرآن إلى أوسع مما كانت عليه عند القراء حيث يقول في تفسيره^(٥) : « ومن أشرف تلك المعاني التي فضّل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه المجيب ، ووصفه الغريب ، وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثله أصغر سورة الخطباء ، وكالت عن وصف شكله البلغاء ، وتحيرت في تأليفه الشعراء وإننا لنفهم من هذا النص أن الطبري يؤكد نظرية بلاغة القرآن ، ويرجمها إلى بديع نظمه وتأليفه الغريب الذي أعجز العرب ، مع أنه بلغتهم ، ولفظه كلفظهم ، ثم ذكر بعض الأنواع البديعية التي أدت إلى التفاوت بين القرآن الكريم وكلام العرب ، وما أتى منها في اللسان العربي ، كالتقديم ، والتأخير ، والاستمارة ، والإيجاز ، والإطناب .

والطبري يُعتبر واضع أساس الدراسة البلاغية للمفسرين عامة ، ولزخمشري

(١) انظر كلامه على قوله تعالى : « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » سورة براءة

آية ٣ .

(٢) انظر كلامه على قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق » سورة القلم آية ٢ : .

(٣) انظر كلامه على قوله تعالى : (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) سورة

القيامة آيتا ٢٠ ، ٢١ .

(٤) انظر كلامه على قوله تعالى : (وإن خاف مقام ربه جنتان) سورة الرحمن آية ٤٦

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن - ١/٦٥ .

المتوفى سنة ٥٣٨ هـ خاصة ، وإن كان الزمخشري قد تأثر بعبد القاهر الجرجاني ، ولم يضع كتابا خاصا في بلاغة القرآن ، إلا أنه عالج بلاغته من طريق عمل آخر ، وهو طريق التفسير للقرآن على طريقة علماء البلاغة ، إذ يبحث البيان في القرآن ، ويطبقه عمليا فيه حيث يقول في مقدمة كتابه ^(١) « إنه لا بد من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم - ومعرفة لطائف حجته » فترى في هذا النص أن علم البلاغة قد أخذ شكلا جديدا ، وأصبح يُطلق على البيان والمعاني على خلاف ما كان يعرفه علماء التفسير السابقون ، وهو بهذا يوافق الجرجاني حيث يجعل بلاغة القرآن راجعة إلى المعاني والأسلوب ، وكان يرى أن الله قد خص العرب بالنصيب الأوفر من سحر البيان ، فتصرفوا في ألوان القول المختلفة ، وكأنه تعالى قد منح هذا البيان وألقى زبدته على لسان محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وأبدته بكتاب بيانه ساطع ، وبرهانه قاطع ، وطريق بيان إعجازه وبديمه هو علم التفسير الذي لا يمكن الإنسان أن يصل إليه إلا بمعرفة علمي البيان والمعاني ، وبجانب ذلك يرى أنه لا بد له من وجود ذوق في الفكر ، وسلامة في الإدراك ، ودراية بأساليب النظم والنثر ، وإحاطة واسعة بمعرفة الأنواع البلاغية وما تشتمل عليه من تقديم ، وتأخير ، وذكر وحذف ، واستعارة وكناية ، وعجاز ، ومعرفة ذلك كله لها أثر كبير في ذلك ، وهو يسير في تفسيره للقرآن متبعا أحكام فن البلاغة ، فكان تفسيره منفردا بهذه الصفة ، وأخذت بلاغة القرآن على يديه شكلا جديدا هو بيان اشتغال القرآن على الأنواع البديعية التي عُرفت بعلمي البيان والمعاني .

ولقد سار الإمام ابن عطية في تفسيره المسمى « الجامع المحرر » على طريقة الزمخشري في كشفاته ، ولكنه لم يذكر أنواعا بديعية كما أنه لم يتكلم عنها ، بل ثبت البلاغة للقرآن ، ويرى أن العرب عجزت عن الإحاطة بجميع الألفاظ وأما كتبها ، فلذلك لم تستطع معارضته ، ويرى أن بلاغة القرآن قائمة على نظم البديع ،

(١) الكشف - ٣/١ .

ومعانيه الرائعة ، وألفاظه المتلعة ، ويرجع عدم إدراكنا لبلاغة القرآن إلى قصورنا عما فيه من البلاغة ، لأن الناس يعمّهم الجهل والنسيان والذهول ، فلا يستطيعون الإحاطة بما جاء في القرآن من البلاغة^(١) .

* * *

(٣) الأدباء :

لما سقطت الخلافة الأموية ، وقامت على أنقاضها الخلافة العباسية ، وزاد اختلاط العرب بالهجم ، وهبّ الناس يظلمون على كتب غيرهم من الفُرس والأعاجم ، نتج عن ذلك إعمال القول . وإطلاق التفكير إطلاقاً حرّاً لا بتقيّد إلاّ بتقيّد الاجتهاد العقلي ، فظهر في القرن الثاني وما بعده شعراء وأدباء يتدارسون القرآن ويكتبون عنه ، وأعنى بالأدباء الرجال الذين كانت لهم بجانب دراستهم الأدبية دراسات قرآنية ودينية ، والفرق بين الدراسات الأدبية والدراسات القرآنية أن الأولى يغلب عليها الأسلوب الأدبي ، والخيال الرائع ، واتجه الأدباء بدراساتهم للقرآن إلى الناحية الفنيّة والجمال الفنيّ حتى يستطيعوا الكشف عن بلاغة القرآن وبديعه ، فأخذوا يقرّونونه بشعرهم ونثرهم من ناحية اللفظ ، والمعنى ، والأسلوب ، والنظم .

فظهرت في القرن الثاني الهجري طائفة من الأدباء والشعراء ، أخذوا يتدارسون القرآن ، وينقّدونه ، ويقلّدون نظمَه وأسلوبَه ، ولكنهم باءوا بالفشل ، ومُنُوا بالهزيمة ، وأيقنوا أن القرآن بلغ الدّروة في البلاغة والفصاحة .

(١) ولقد ظهرت فكرة بلاغة القرآن وروعةُ بديعه مع هدفه الإصلاحي

(١) انظر الإتيقان للسيوطي ١١٩/٢ ، ومجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٥٤ من ١٠٤

تقلا عن تفسير المؤلف . ٤٠٨

عند الكاتب الكبير والأديب الفاضل علي بن رستم الطبري حيث يقول (١):
 « حينما كنت مسيحياً كنت أقول كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليس من علامات النبوة، لأنه في استطاعة الناس كلهم، ولكن عندما حاولت تقليده، وأطلمت على مدلول كلماته، علمت أن أتباع القرآن على حق فيما يدعونه له، لأنني لم أظلم على كتاب يأمر بالخير ويهتدي عن الشر كالقرآن، فمتى ما يحمل لنا شخص كتاباً يحمل نفس المميزات، وبوجهي إلينا بهذه الطلاوة، وتلك الروعة في القلوب، ويجوز مثل هذا الفجاء، ويكون في نفس الوقت أستاذاً لم يتعلم أبداً في الكتابة والبلاغة، فهذا الكتاب يكون بلا شك من علامات النبوة ».

فإن رستم يثبت في هذا النص البلاغة للقرآن، والطلاوة لأسلوبه والفاظه، والروعة لمعانيه، ويحمل ذلك كله من أمية النبي دليلاً صادقاً على رسالته وعجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله، ولكنه من إطلاقه القول في بلاغة القرآن لم يحدد البلاغة ولا أنواع البلاغة فيها. (٢)

ثم يتسم الحديث عن بلاغة القرآن وتقدمه عند الأدباء، ويأخذ شكلاً آخر أوضح وأظهر على يد:

(ب) أبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥: في كتابه الصناعتين وإن لم يخصص لدراسة بلاغة القرآن تأليفاً خاصاً، إلا أنه أوجب معرفة البلاغة ودراستها لأنها هي الطريق المؤصل إلى معرفة بلاغة القرآن وإعجازه، فيقول: « اعلم علمك الله أخيراً أن أحق العلوم بالتعلم، وأولها بالحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ».

فإن هذا النص يوجب أبو هلال تعلم البلاغة والفصح حتى يصل بالتعلم إلى معرفة بلاغة القرآن وتقدمه، ثم يؤكد ذلك بعبارة قلوبهم فيقول: « وتقدم علمنا ».

(١) أدب الدين والدولة: ٤٤

(٢) انظر مقدمة الصناعتين له: ١ وما بعدها

أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما حباه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وما ضمنه من الحلاوة ، واشتمل عليه من رونق الطلاوة ، مع سهولة كله وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسن التي عجز الخلق عنها ، وتحيّرت عقولهم فيها .

فهو بهذا النص يرى أن بلاغة القرآن وفصاحته راجعتان إلى نظمه ، وحسن تأليفه ، مع سهولة كلامه ، وعذوبة معانيه ، ثم زاد في بلاغة القرآن أثره في النفوس ، وإحداثه تلك الطلاوة في القلوب ، مع اشتماله على الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وأراد أن يدلّ على ذلك فذكر أنواعاً بديعية ^(١) عُرفت في عصره ، وأطلقت عليها كلمة « بديع » وبين مدى وجودها في القرآن الكريم حتى يقوَّى مذهبه ويدعّم حجّته ، إذ انتقل ببلاغة القرآن إلى الناحية الفنية ، ليجت فيه عن جمال الألفاظ ، ورونق المعاني ، وصحّة التراكيب .

(ح) ثم ينتكس القول في بلاغة القرآن ، ويعود سيرته الأولى التي بدأها القسّام على يد الأديب ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ إذ يقصد من دراسة القرآن غرضاً دينياً لا فنياً ، فهو يبحث الأديب على معرفة الفصاحة حتى يستطيع من وراء ذلك قول الكلام وقده ، وفهم النصوص الشرعية ، ومعرفة لما إذا كان القرآن خارقاً للمادة بفصاحته وإن كان لا يقول بأن القرآن بليغ ، إذ يقسم الكلام إلى قسمين : متلّئم ومتنافر ^(٢) ، وينسك على الرّمان جعله القرآن متلّئماً في الطبقة العليا ، وغيره من كلام العرب في الطبقة الوسطى ، فهو يرى أنه لا فرق بين القرآن ، وبين فصيح الكلام المختار في ناحية الفصاحة ، وأن في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه ، ثم يعود فيشدّد التنكير على (الرّمان) لثمرته لبلاغة القرآن ، وجعلها حجة في إعجازه ، لأن القرآن يتألف من ألفاظ نطق بها العرب وجاءت في كلامهم ، ويرجع تنافر الألفاظ إلى قرب مغارج حروفها ،

(١) انظر الصناعتين الباب التاسع في شرح البديع من ٢٦٦ — ٤٣٠

(٢) سر الفصاحة : ٩١ ، ٩٤ ، ٢١٢ على الترتيب

ولما كانت ألفاظ القرآن غير متنافرة ، وأسلوبه غاية في البلاغة ، كان من القائلين ببلاغة القرآن من غير شعور منه . ولكنه جعل القرآن طبقات في الفصاحة ، إذ أن بعضه أفصح من بعض ، ويسوق لذلك أمثلة لتأييد رأيه ، ويقول : « ليت شمرى أى فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسن وأصبح من الآخر ، وبين أن يحدث كلامين أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر » .

(٥) ثم تعود دراسة بلاغة القرآن وبدعيه إلى الوضوح والظهور مرة أخرى على يد السكاكي التوفي سنة ٦٢٦ إذ يرى أن القرآن بليغ بنظمه ، وأسلوبه ، وفصاحته ألفاظه ومعانيه ، وصحة معانيه ، يقوده إلى ذلك الكشف عن بدع القرآن وجماله ، ووجود الفنون البلاغية فيه .

فقسم علوم البلاغة إلى نحو ما نعرفه الآن من علومها الثلاثة ، وأعطاهما شكل القواعد ، وبحثها بحث عدد إماما لمن أتى بعده ، وفي وسط هذه الدراسة تعرض لبلاغة القرآن بما نقله عنه صاحب « الإتيقان »^(١) حيث يقول : « اعلم أن إعجاز القرآن يُدرك ، ولا يُمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكما يُدرك طيب الخُفَم المارض للصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفِطْرة إلا بإتيقان علمى المعانى والبيان ، والحدق بهما .

ولا شك أن هذا النص تغلب عليه الروح الفلسفية والعقلية المنطقية التي يُعتبر السكاكي أول من صيغ بها علوم البلاغة ، كما يفهم منه أن بلاغة القرآن شئ لا يدرك أحد إلا بفهم بلاغة الألفاظ والمعاني وطرق تأديتها ، وذلك بإعادة النظر في المعاني والبيان وإتيقانها ، ثم رآه أيضا يتحدث في كتابه^(٢) عن قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(٣) 》 .

(١) الإتيقان ط المطبعة الأزهرية ١٢٠/٢

(٢) مفتاح العلوم ص ٢٢٣ — ٢٢٤ (٣) سورة هود آية ٤٤

وبيّن في هذه الآية الأنواع البديعية ويقول : هذا كله نظر في الآية من جانب البلاغة ، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهو كما ترى ، نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصه ، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة تسبق إلى أذنك إلا ومناها يكون أسبق إلى قلبك ، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة عن التناثر ، بعيدة عن البشاعة والله درّ التنزيل ، لا يتأمل متأمل آية من آياته إلا أدرك لطائف لا نسم الحصر ، ولا تظن الآية مقصورة على ما ذكرت ، وما تركت أكثر مما ذكرت ، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان .

وهذه الآية نفسها ذكرها ابن أبي الإصبع وأخرج منها ما لا يقل عن عشرين نوعاً من أنواع البديع .

(هـ) — ثم رى الآمدى سيف الدين أبا الحسن علي بن علي الثعلبي ، وهو من علماء القرن السابع الهجري يتكلم عن بلاغة القرآن ، ولكنه لم يختص لها كتاباً خاصاً ، بل إنه جمع آراء السابقين ، وتكلم عن نظم القرآن وأسلوبه ^(١) .

* * *

ثانياً : كتب خاصة بالدراسات القرآنية

— ١ —

بعد أن أشرت إلى آراء العلماء المتفرقة في أثناء الكتب عن بلاغة القرآن وبديعه فإنني أتكلم عن علماء أفردوا كتباً لدراسة القرآن ، ولم أستطع أن أقول : دراسة بلاغة القرآن أو بديعه ، لأنني لم أعثر على كتاب انفرد به مؤلفه لدراسة

(١) انظر مقدمة تفسير الألوسي ٢٥/١ ط مصر

الأنواع البدعية في القرآن قبل ابن أبي الإصبع ، وإنما اتجه فريق من الناس إلى الدراسات القرآنية : مفردات ، وغريب ، ومجاز ، ومعان ، ونظم ، وإعجاز ، غرضهم الاسامي من هذه الدراسة بيان أثر القرآن في الفوق العربي ، وكشف خصائص الأسلوب القرآني من الناحية اللغوية ، والنظم ، وطرق التعبير ، حتى بهتدوا من وراء ذلك إلى سر بلافته وإعجازه . وأثره في النفوس ، وسوف أنسلكم عن كل كتاب ألفه صاحبُه لدراسة القرآن ، مبينًا مدى ما أفادت هذه الدراسة وذلك التأليف في دراسة بلاغة القرآن ، حتى أضغ ابن أبي الإصبع في موضعه من هؤلاء المؤلفين .

ولعل أول كتاب انفرد بدراسة القرآن هو كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ ، وهو يتضمن محاولة لتفسير غريب القرآن وبيان منهجه أو مجازه في التعبير ، ووجوه نظمه التي لا يوجد مثلها في كلام العرب ، وأبو عبيدة لم يُفصِّح لنا عن موقفه من بلاغة القرآن ، ولكنه نكلم عن أنواع^(١) بلاغية فيه ولم يقصد التفصيل والتقسيم لهذه الأنواع التي تمرّض لها وسمّى بعضها ، وزاه يكرر كثيرا قوله : مجازه كذا ؛ ومن هذا نرى أن أبا عبيدة لم يقصد الكشف عن بلاغة القرآن أوبديته، أو عن جمال أسلوبه، كما قد يفهم من معنى هذه العبارة بل كان كلَّ همه معرفة الحقيقة والمجاز للألفاظ القرآنية ، وقرنها بما جاء مثيلا لها في الأدب العربي ، مما

(١) تكلم عن تكرار التوكيد في آية « فصيham ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم » البقرة ١٩٦ وقوله « إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » يوسف ٤ ، والتقديم في آية : « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » الحج : ٥ ، والكناية في آية : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » الشعراء : ٤ ، والالتفات والحذف استغناء بدلالة التجوز (انظر مقدمة مجاز القرآن لأبي عبيدة) .

جمل كتابه يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانية ، وإن كان قد أفاد غير قليل في البحوث اللغوية

تأويل مشكل القرآن ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، صنفه المرد على الطاعنين في بلاغة القرآن من المعزلة والملاحدين والذين اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فبين ما غرض من معناه ، وفسر المشكل الذي ادعى على القرآن فساد النظم فيه ، وابن قتيبة يقصد « بلاغة القرآن أو بديمه » حجة التأليف الذي قطع أطماع الكاذبين ، وعجيب النظم الذي دحض حيل التكلفين ، وأثره في النفس ، وفوائده التي لا تنقطع حيث يقول :

الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور القرآن، «وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا» بل نزله قسما مفضلا بيننا «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» وقطع بمجزء التأليف أطماع الكاذبين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل التكلفين ، وجمله متلوا لا يُمَلَّ على طول التلاوة ، ومسموعا لا تَجْهُ الآذان ، وغصبا لا يخلق على كثرة الرداد ، وعجيبا لا تنقض عجائبه ، ومفيدا لا تنقطع فوائده ، ونسخ به سالف الكتب ، وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم - : «أوتيت جوامع الكلم» (١) .

ثم بين أنه لا يمكن الوصول إلى معرفة بلاغة القرآن إلا بترداد النظر فيه ، واتساع العلم ، وفهم مذاهب العرب ، فقال (٢) : « وإنما يعرف فضل القرآن من أكثر نظره فيه ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب ، واقتناها في الأساليب

(١) اللسان ٤٠٤/٩

(٢) تأويل مشكل القرآن تحقيق السيد أحمد صقر ص ١٠

وما خصت به لغتها دون جميع اللغات ، ثم أخذ يقرن بين لغة القرآن وبلاغته ، وبين لغة العرب وبلاغتهم ، وبمد أن بين أن بلاغة القرآن راجعة إلى التأليف والنظم وسلاسة المعاني وعدوبة الألفاظ ، وأثره في النفس ، إذ يثير الوجدان عن طريق الشعور فيهمز القلوب ، لأن أسلوبه يخاطب النفس البشرية خطاب العارف بحفاياها ، كما لم يُفعل الناحية اللغوية ، فتناول لغة القرآن كأداة للتمبير .

وذكر ابن قتيبة أنواعاً بديمة في القرآن تسكّم فيها عن المجاز^(١) والاستمارة والقلوب والحذف والاختصار والتكرار والزيادة ، والسكناية والتعريض ، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه .

كما لم يستطع إنسان أن يُفعل صنع ابن قتيبة في استخراج مافي القرآن من أنواع المجاز ، وتبويبها أبواباً مفصلة قبل أن يؤلف ابن المعتز بديمه في سنة أربع وسبعين ومائتين بسنين .

— ٣ —

ننتقل ببلاغة القرآن إلى القرن الرابع ، فنجد أن نظرة العلماء إليها لم تتغير ويصبر ما أتوا به زددا لما سبق ، اللهم إلا في القليل النادر الذي سيظهر لنا في المستقبل ، فنجد أن أبا عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ قد ألف كتاباً في إعجاز القرآن البياني ، وقد كانت هذه الفكرة مُسيطرّة على الكتب ، مُوجّهةً لمباحثها ، آخذةً مكانها في البحوث النقدية باعتبارها غاية حينا ، ونمرة حينا آخر^(٢) ، فظهرت كتب مستقلة معنونة بأسم الإعجاز ، تعرضت في هذه الدراسة أو اعتمدت في دراستها على الكشف عن بلاغة القرآن ، فسار الواسطي على نظرية من يقول : إن بلاغة القرآن أصل في إعجازه ، ولسكني لم أطلّم على كتابه ، ولم أدر من أين حكم الأستاذ الراقعي^(٣) عليه بأنه أول من جدّد القول في بلاغة القرآن وصنّف فيه ، مع العلم بأن كتابه مفقود .

(١) تأويل مشكل القرآن : ٧٦ — ٢١٢ .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد ١٤

(٣) تاريخ آداب العرب ١٤٥/٢

يرى الرّمانى « أبو الحسن على بن عيسى » المتوفى سنة ٣٧٤ فى كتابه « النُّسْكُ فى إعجاز القرآن » أن من جهات إعجاز القرآن بلاغته ، وقَسَمَ البلاغة إلى طبقات ثلاث .

(١) ما هو فى أعلى طبقة (٢) ما هو فى أدنى طبقة (٣) ما هو فى الوسط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان فى أعلى طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن ، وما كان فيما دون ذلك ممكن كِبَلاغة البلقاء من الناس ، وليست البلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلمان : أحدهما بليغ ، والآخر عيسى ، ولا هى أيضا تحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ المعنى وهو غث مستكبره ، ونافر متكلف ، وأما البلاغة فهى إِبْصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ، فأعلاها طبقة فى الحُسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للمرب والمعجم كإعجاز الشعر للمعجم ، فهذا معجز للمعجم خاصة ، كما أن ذلك ، وهو القرآن ، معجز للكافة (١) .

ومن هذا نفهم أن القرآن معجز بألفاظه ، وأسلوبه ، ونظمه ، وأثره فى النفوس (٢) .

نم يرى أن اللّغة على أقسام ، عدّت هذه الأقسام أنواعا بديعية ، وعرفت تحت اسم البديع ، وهذه الأقسام التى ذكرها وجعلها بلاغة للقرآن وهى (٣) : الإيجاز والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان .

(١) النُّسْكُ فى إعجاز القرآن : ٢٧

(٢) نقل عنه هذا الرأى ابن سنان الحفاجى فى كتابه « سر الفصاحة ص ٩١ وما بعدها ، وصاحب الطراز ٤٠٤/٣

(٣) النُّسْكُ فى إعجاز القرآن ، ضمن مجموعة الثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد أحمد خلف الله ، محمد زغلول سلام من ص ٧٠ — ٩٨ .

والذى يهمننا أن الربانى يرى أن نظم القرآن خارج عن العادة ، وطريقته مفردة لها منزلة فى الحسن تفوق كل طريقة ، حتى الموزون الذى يُعتبر أحسن الكلام .

ما زلنا فى القرن الرابع مع الخطابى محمد بن ابراهيم بن خطاب البُسْتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ معاصر الرّما ، فقد ألف كتاباً سماه « بيان إعجاز القرآن » وفى الحقيقة أن هذا الكتاب استعراض وجمع لآراء العلماء فى بلاغة القرآن وإعجازه ، ثم إثبات رأيه فى ذلك ، والخطابى يرى أن بلاغة القرآن راجعة إلى جمال ألفاظه ، وحسن نظمه ، وسموّ معانيه ، يظهر ذلك حينما تقرأ قوله (١) : « وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، ولا أشدّ تلازماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما الممان فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها المقول بالتقدّم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نواتها وصفاتها ، وقد توجد هذه الفضائل متفرقة فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة فى كلام واحد منه ، فلم توجد إلا فى كلام المليم القدير الذى أحاط بكلّ شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . »

ولم يقف أمر الخطابى فى تفسير بلاغة القرآن على فصاحة ألفاظه ، ولا سلامة نظمه ، وحسن تأليفه ، ولا وضوح معانيه ، بل تمدّت ذلك إلى أثر القرآن فى النفوس فيقول : « إن الذى يوجد لهذا الكلام من المذوبة فى حسّ السامع والمهشاشة فى نفسه ، وما يتحصّل به من الزونق والبهجة التى يباين بها صائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب ، والتأثير فى النفوس ، فتصطليح من أجله الألسن على أنه كلام لا يُشبهه كلام ، وتُحصّر الأقوال عن معارضته ،

(٢) المصدر نفسه : ٢٦

(١) بيان إعجاز القرآن : ٢٨

وتنقطع به الأطلاع عنها أمر لا بد له من سبب بوجوده يجب له هذا الحكم ،
وبمحصوله يستحق هذا الوصف .

وقد قسم الكلام إلى طبقات ثلاث : فيقول تدليلاً على النص السابق
« وشاهد على أن السبب له والملة فيه أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها
في نسبة التباين متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ
الرسين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائر المطلق الرسل ،
وهذه أقسام الكلام الفاضل الممود ، دون النوع المهجين الذموم ، الذي لا يوجد
في القرآن شيء منه البتة ، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم
الثاني أوسطه وأقصده . والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من
كل قسم حصّة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه
الأوصاف نمط من الكلام يحجم صفى الفخامة والمذوبة .

ويجب أن يعلم بأن فهم الخطّاطي للبلاغة قريب مما نفهمه نحن الآن منها ،
بل قريب جداً من الكمال ، وإن كان ينقص رأيه عنصر الخيال ، إذ جمع في كلامه
بين معان سامية ، وأسلوب مُحكم ، وعاطفة قوية تؤثر في القلوب .

اتسعت دائرة الكلام عن بلاغة القرآن وبديعه في الشكل ، ولكن لم يتغير
الموضوع وكان أنساعها على يد عالم كانت له فيها جولات واسعة وهو القاضي أبو بكر
محمد بن الطيب المعروف بالبالقاني المتوفى سنة ٤٠٣ ، وفي الحقيقة أنه يمتزج قنطرة
عبر عليها حديث بلاغة القرآن من أفكار تدور على ألسنة العلماء والأدباء ينقلها
واحد عن آخر ، وآراء متشعبة فردية ، إلى أفكار ثابتة منظّمة في أسلوب علمي
سلم ، وطريقة واضحة ، حتى أصبح بحق مدرسة تخرج فيها علماء البلاغة
ومؤلفو كتب بلاغة القرآن وبديعه من بعد .

وهو وإن كان قد ألف كتابه ليردّ به على منكبرى الإعجاز في عصره وقبله

عصره ، إلا أنه تسكّم عن بلاغة القرآن وأثره في نفوس سامعيه^(١) ، كما تعرض
 لكتاب « نظم القرآن » للمحافظ^(٢) ، ورأى أنه غير كاف للدلالة على بلاغة
 النظم ، لأن المحافظ لم يزد عما قاله المتكلمون قبله ، ويعمل لبلاغة القرآن أنه يلزم
 النهاية في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة^(٣) ، ومع إيمانه ببلاغة القرآن
 وتفاوته العظيم في النظم بينه وبين غيره من الكتب السماوية يرى أن البديع
 ليس من الأسباب التي توصل إلى الإعجاز حيث يقول^(٤) : « إنه لا سبيل إلى
 معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي أدّعوه في الشعر ووصفوه فيه ، لوجود
 البديع في شعر الشعراء ، ونثر الكتّاب ، ولا شك أن الباقلانيّ برأيه هذا
 يخالف ابن أبي الإصبع في بديعه حيث يؤمن أن البديع يقصد به أنواع البلاغة
 من طرق الإعجاز في القرآن .

ثم زاء يدعو إلى ترداد النظر في القرآن ومقارنته بغيره حتى يتوصل إلى
 معرفة أيّهما أبلغ ، ولقد وجّه جُلّ عنايته إلى هذه الموازنات .

ولقد شغف ببلاغة القرآن فأخذ على نفسه أن يرجعها إلى أسلوبه ونظمه ،
 فيرى أن أسلوب القرآن خاص به ، لا يضارعه فيه غيره ، كما أنه خارج عن
 الأساليب المعروفة^(٥) ، فلم يوجد وإن يوجد في المربية أثر يجاريه في بلاغته بحيث يحفظ
 جمال الأسلوب مع هذا المقدار من الطول ، والاشتغال على الموضوعات المختلفة
 من الأوامر والنواهي ، والوعد والوعيد ، والقصص ، كما أنه يدلّ على جودة نظم
 القرآن وسموّ بلاغته بأخذ كلمة منه ، واستعمالها في شعر أو نثر ، فتصير كالذرة
 في وسط المعقد تسترعى الأنظار ، وتدهش العقول ، وتبهّر الألباب^(٦) .

ولم يقتصر عمل الباقلانيّ على مجرد الكلام عن ألفاظ القرآن وأسلوبه ونظمه

(١) إعجاز القرآن ٤٠ وما بعدها

(٢) » ٦ :

(٣) » ٥٤ : وما بعدها .

(٤) » ١٦ :

(٥) » ٦٠ : وما بعدها .

(٦) » ٦٧ :

وأثره في النفس ، وما تؤدّي هذه الأشياء مجتمعةً إلى بلاغته ، بل تكلم عن أنواع بدعية كثيرة تحت هذا الاسم ^(١) عرفها وبين أساليب الأداء المختلفة عند العرب ، كما أنه عرف البلاغة بما في البيان والتبيين ، وذكر التشبيه ، والاستمارة ، والتمثيل ، والمائلة ، والتجنيس ، والطائفة ، والمساواة ، والإشارة ، والمبالغة ، والغلو ، والإيغال ، والتسليم ، والتقسيم ، والتكميل ، والاستطراد ، وتأكيّد المدح بما يشبه النعم ، وهو وإن كان لم يُطيل الكلام عن هذه الأنواع ، فكذلك لم يعمل على حصرها كراهة التطويل .

وأخيراً نلم أن الباقلاني يقصد ببلاغة القرآن وبديمه أسلوبه ونظمه البديع والأفاظه وأثره في النفوس ، ثم لم يغفل اشتغال القرآن على أنواع بدعية .

- ٨ -

ثم رى معاصراً آخر وهو الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ يؤلف كتاباً عن مجازات القرآن ، يعتبر هذا الكتاب ، معجم لغة ، ودوان أدب ، وجمع نوادر ، وكتاب بلاغة ، وقد بين فيه كثيراً من غرائب آيات القرآن ، وأوضح طائفة من غوامض أسرارها ، ويسرفهم عجائب معانيه ، وكشف عن بدائمه متشابهاته ، وأبان عن لطائف تأويله ، وألف بين مختلفه ، وعبر عن سر إعجازه ، وأصول براعته وجواهر كلامه ، نخدم العربية والقرآن وفنون اللغة .

وزاء يعمل على بيان بلاغة بعض الآيات التي يتعرض لها ، فيصدر كلامه عن الآية بكلمة استمارة ، ويجرى الاستمارة على الطريقة الحديثة ، ولكنه لا يقصد بها الاستمارة التي تنفرع عن التشبيه ، كما أنه تكلم عن المجاز ، ولا يقصد به المجاز اللغوي المصطاح عليه في علم البيان ، وإنما يطلق كلمة المجاز على معنى أعم يشمل المجاز العقلي واللغوي والتشبيه جملة .

ثم زى بلاغة القرآن قد اتخذت منها جديدا عند عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ الذي تكلم عنها ، فلم يكن مقلدا ولا جامعا لآرائهم ، بل كان مفكرا استفاد مما ذكره ، ومبتكرا فاخترع ما لم يعرفوه . فكان صاحب نظرية النظم ، وألبسها ثوبا قشيبا ، كما أنه وجد أن دولة الألفاظ قد طفت وكثر زعماءها ، فنقل البلاغة من حيز الألفاظ الثلاثة إلى المعاني التناسبية ، وعرضها عرضا مستفيضاً حتى اعتبر بحق عند كثير من علماء البلاغة أنه أول من ألف فيها . وقد ألف كتاب «دلائل الإعجاز» ليثبت فيه بلاغة القرآن بمد كلامه عن البلاغة عامة في كتابه « أسرار البلاغة » . وإن كان لكتابه الأخير هذا ميزة خاصة ، وهي عنايته بالبلاغة من الوجهة النفسية من حيث مراعاة وقع الكلام في النفس ، ومراعاة أحسن الطرق لإفهام النفس الإنسانية ما يريد أن يؤدبه المتكلم ، والجرجاني في دراسته لبلاغة القرآن لا يرجع هذه البلاغة إلى معاني الكلمات مفردة ، ولا إلى موازنة كلمات القرآن بكلمات العرب ، ولا إلى المقاطع والفواصل ، لأنها ليست بأصعب من الوزن والقافية في الشعر ، ويذكر أن العرب الذين في مقدورهم ذلك قادرون على المقاطع والفواصل ، كما أنه خيل لبعضهم مثل ذلك (١) .

كما أنه لم يرجع بلاغة القرآن إلى اشتماله على الاستمارة وما يتعلق بأنواع البديع لأنها لا توجد في كل الآيات ، وإذا صح ذلك فتكون بعض الآيات الخالية من البديع غير بليغة ولا ممجزة ، ولا يرجع بلاغته إلى ألفاظه السهلة أو الغريبة (٢) .

وإنما تقوم بلاغة القرآن على تلازم معانيه في الكلمات المفردة تلاؤما يساعد

(١) دلائل الإعجاز : ٢٩٦ وما بعدها ولعله يقصد بمن عارض القرآن في مقاطعه وفواصله أبا العلاء المعري « ولكن الرافعي ينفي عنه ذلك أنظر آداب العرب ١٨٩/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٠٤ .

على أداء المعنى العام المقصود في جمال وقوة - وهذا ما نفهمه من البلاغة الآن - ويتم نظم هذه المعاني نظماً مستقيماً متلاًماً بفضل علم النحو بعنايه الواسع الذي يشمل البلاغة في نظرنا (١) .

والمعدة في إدراك هذا النظم وتلك البلاغة هو الذوق والإحساس الروحاني وكثرة الاطلاع على كلام العرب (٢) إذ أن بلاغة القرآن شيء غير محسوس فيختلف في تذوقه ، إذ المُلحد أو الشاك في بلاغة القرآن لا يجد فيه من الروعة والجمال ما يجده المؤمن ، إذ قد يكون كتاب آخر يؤيد عقيدته وأفكاره أروع عنده من القرآن ، ولأنه ليس من المتيسر اتفاق الناس في تقدير الجمال في القول ، كما أنهم لا يتساوون في إدراك الجمال المدرك بالحس ، كما أنه لا شك أن مقاييس الجمال حتى ما وضع منها في عصرنا مهما بلغت الدقة لا توحّد بين أذواق الناس (٣) ، لأنهم لا يتفانون في تقدير الجمال بتفاوت الأزمنة والأمكنة ، فأيعدّ بليغاً في زمن لا يُعدّ كذلك في زمن آخر ، ومايعدّ بليغاً في البدو لا يُعدّ كذلك في الحضرة . وعبد الفاهر يُعتبر بحق قدوةً لدارسي بلاغة القرآن ، إذ يُعتبر مفكراً صرّح التفكير ، حيث يجعل بلاغة القرآن شيئاً لا يدركه كل الناس على السواء . إلا أنني آخذ عليه إهماله موسيقى الألفاظ وفصاحتها مفردة ومركبة ، والتبس له المذرك في ذلك لأن نظرية الألفاظ وبلاغتها قد أعلنت الحرب شعواء على المعاني وبلاغتها ، لذلك نجد قد جند نفسه لنصرة المعاني وبيان قيمتها في نظم الكلام .

ثم رى عالماً آخر يتكلم عن بلاغة القرآن في كتاب له متأثراً فيه بمن سبقه

(١) دلائل الإعجاز : ٦٤ وما بعدها

(٢) المصدر نفسه : ٤١٨

(٣) انظر مجلة الجميع العلمي العربي سنة ١٩٥٣ من ١٥

من العلماء ، وأكثر من هذا أنه جمع فيه خلاصة ما قاله عبد القاهر الجرجاني في كتابينه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » .

وهو الإمام نجر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ ، فإنه أورد ذلك في كتابه « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » . والحقيقة أن الرازي يرمى من وراء ذلك إلى الكشف عن الفنون البلاغية في القرآن ومدى أثرها في إعجازه للبشر ، ويرى أن إعجازه وبلاغته راجعان إلى الفصاحة التي يشتمل عليها نظمها . وبدائمه التي راعتهم من مبادئ الآيات ومقاطعها ، وفي مَضْرِبِ كلِّ مثل ، ومساق كلِّ خبر ، وصورة كل عظة ، وأوجب على الماقل أن يبحث عن تلك المزايا والبدائمه ما هي ؟ ، وكَم هي ؟ ، وكيف هي ؟ ، ولا يمكن ذلك إلا بالكشف عن حقيقة كل من المجاز والحقيقة ، والاستمارة ، والتشبيه ، والتمثيل ، وحقيقة النظم ، والتقديم ، والتأخير ، والإيجاز والحذف ، والوصل والفصل ، وسائر وجوه المحاسن المعتبرة في النظم والنثر ^(١) .

ثم أخذ بعد ذلك يُوضح بالكشف والتحقيق عن الأنواع البلاغية التي ذكرها ، ولعله كأستاذ عبد القاهر يرى أن علم النحو بمعناه العام يشمل البلاغة أيضا ، لأنه تسكلم عن أشياء من صميم النحو كاللطاف ^(٢) ، والحال ^(٣) ، والتمييز ، والحذف ^(٤) ، والإضمار ، والابتداء ^(٥) والخبر ، وما إلى ذلك

والرازي يرى أن « بلاغة القرآن » في أسلوبه ، ومعانيه ، وألفاظه ، واشتماله على الأنواع البديمية .

مما تقدم نرى أن بلاغة القرآن وبديمه تطورت من دراسة لغوية إلى دراسة

(١) انظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٦ - ٧ ونصيره الجزء الأول : ٢٢٥

ط مصر سنة ١٣٠٧ هـ

(٢) المصدر نفسه : ١٣٧

(٣) المصدر نفسه : ١٣٢

(٤) » » : ١٥٧

(٥) » » : ١٣٩

الفصل الثالث

في التعريف بالمؤلف

أولاً : عصره

بعد أن تكلمت في الفصلين السابقين عن تطوّر كلمة بديع ، وتاريخ الكتابة في بديع القرآن وبلاغته ، رأيتُ من اللازم على أن أعرفُ بالمؤلف ، لأضع صورة واضحة عنه في هذا التقديم ، وسأبدأ الكلام عن عصره السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي ، مُعنيّ بالناحية الأدبية .

عصره السياسي :

١ - عاش المؤلّف معظم حياته في ظلّ الدولة الأيوبية ، وشطر من دولة المماليك البحرية ، والدولة الأيوبية قد حكمت مصر الوطن الأصلي لابن أبي الإصبع من سنة ٥٦٧ هـ - سنة ٦٤٨ هـ .

ويلاحظ أن حكومة الدولة الأيوبية كانت سلطنة وراثية بعد أن حصل عليها صلاح الدين الأيوبي من الخليفة العباسي سنة ٥٧٢ ، فكان يلقّب بالسلطان هو وأولاده من بعده ، إلى انتهاء الأسرة^(١) ، وكانت مصر في هذا الوقت مطمح أنظار الصليبيين ، وبعض الأمراء المصريين الذين يطلبون الاستيلاء عليها والظّفر بها ، فكثرت الفتن ، واشتملت نار الحرب ، ودّبت في مصر الفوضى والاضطراب ، فقامت الحروب الصليبية بين الأيوبيين والإنرج ، وكانت الحرب سجّالا ، واتفق فيها الأيوبيون انتصارات عظيمة ، فالتّسمت رقعة

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦/٣٨٧

انبلاذ ، ثم قسّمت هذه الدولة بمد السلطان صلاح الدين إلى ولايات يحكم كلّ ولاية سلطان من سلاطين الأيوبيين .

وتولّى حكم مصر بمد صلاح الدين على التوالي : السلطان العزيز عماد الدين عثمان ، والنصور ناصر الدين محمد ، والعاذل سيف الدين أبو بكر ، والكاظم ناصر الدين محمد ، والعاذل الثاني ، والصالح نجم الدين أيوب ، والمظفر توران شاه ، وعصمة الدين أم خليل شجرة الدر ، وبانتهاء حكم شجرة الدر انتقل حكم مصر إلى السلطان الملك المنصور أيبك التركماني رأس الماليك البحرية .

٢ — ودُعِرُ المصريين في هذا العهد لم يكن سببه فقط الحروب الصليبية التي خَلَمَتْ على صلاح الدين وحلفائه من بعده صفات القوة والشجاعة ، والدود عن الإسلام ، بل قامت هناك فنٌّ داخلية متمدّة ، أهمّها الفن بين الأمراء الأيوبيين كالتى كانت بين العزيز عثمان ، وأخيه الأفضل ، وبين الأفضل وعمره العادل ، والسلطان العادل ، والسلطان المنصور بن السلطان العزيز عثمان ^(١) ، كما لم تعدم مصر في هذه الفترة ثورات فاطمية كانت تُقَابَلُ بالشدّة ^(٢) ، كما أن العربَ الضاربين بيوتهم حول مدينة دمياط على اختلاف قبائلهم كثيرا ما كانوا يقومون بثورات إجرامية الغرض منها النهب والسلب ، وقطع الطريق ، وبالفوا في الإفساد ، فكانوا أشدّ على المسلمين وقعا من الإفرنج ^(٣) ، ومن الثورات : ثورة ابن المشطوب ^(٤) وأعوانه الذين انقادوا لأمره . كل هذا والساطان الأيوبي يسيطر على زمام الحكم ، يعاونه توائمه والمخلصون من رجال دولته ، والأبناء والإخوان الموالون ، إلى أن انتهت الدولة الأيوبيّة ، وقامت الدولة المملوكية ، ونظام الحكم فيها مرتبط إلى حدّ بعيد بطبيعة نشأتهم المعتمدة على القوة والفروسية ، فكان سلطانهم أشدّهم بأسا ، وأقواهم سلطة ، وأكثرهم أعوانا ، كما كان بقاء أحدهم

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٢

(٢) السلوك للقرنيزي ١٠١ / ١ (٣) الكامل لابن الأثير ١٢ / ٢١٢

(٤) هو الأمير سيف الدين أبو الحسن علي بن أحمد الهكاري

في السلطنة رهينا بقوته وحماية جنده له ، وكان الحكم مركّزا في يد السلطان ، فهو الذي يميّن رؤساء الدواوين الكبرى ، والموظفين والكتّاب .

٣ — هذه الحالة السياسية التي أشرنا إليها لم يشترك فيها ابن أبي الإصبع بسيفه ولا بقلبه ، بل اعتزل السياسة ، واقتصر على الحياة في ظلها لا غير ، مع أن الميدان أمامه كان فسيحا ، وهو شاعر محسّس ما حوله ، ويتحرّك له شعوره ، كان خليقا أن ينطق لسانه بما يخالج نفسه ، فيناصر مليكا ، أو يعصّد سلطانا ، أو يطلب عملا في هذه الدولة المترامية الأطراف ، ولكنه أثر المكوف على العلم والتأليف ، صنع رجال الزهد في المناصب والانصراف عن الحروب والثورات ، فلم نره فيما لدينا من المصادر أو ما وصل من شعره أنه مدح سلطانا يبغى جائزة أوجاها ، أو شايح ملكا ، أو ناصر سلطانا أبويا على أخيه — مع كثرة الخلاف بينهم — كما لم نجد أنه تولى من وظائف الدولة شيئا كغيره من العلماء والشعراء الذين عاصروه أمثال البهاء زهير الذي تولى ديوان الإنشاء ، وابن سناء الملك الذي أكثر من مدح بعض ملوك الأيوبيين ؛ ولعله اختار لنفسه السلامة من عقابيل السياسة وما تجرّ موافقها من عن وويلات ، شأن العلماء ذوى التجارب والبصائر .

* * *

عصره الاجتماعى :

١ — بعد معرفة الحالة السياسية في عصر ابن أبي الإصبع ، وما كانت عليه من اضطرابات داخلية ، وحروب صليبية ، لا يمكن أن تكون الحالة الاجتماعية في مصر مستقرة ، وهى وإن كانت غنيّة يأتيها المال من موارد عدة ، كالجزيرة التي كانت تصل إليها من الإمارات ، والضرائب التي كانت تُجبى ، والكنوز التي ورثها الأيوبيون عن الدولة الفاطمية ، وما غنموه أيضا من الأسلاب في الحروب ، وفدية كثير من الأسرى .

ولما كانت الحياة الاجتماعية ذات صلة قوية بالحياة الاقتصادية نجدنا هنا فلم بالأوضاع الاقتصادية كذلك ، حرصا منا على الاختصار في التقسيم ، ون
تعداد الفصول .

فقد اهتم الأتوميون أيضا بالزراعة ، والتجارة ، فطهروا الشراع ، وأقاموا
الجسور ، ونظموا وسائل الري .

فالمقريزي يروى لنا من السلطان الكامل الذي حكم مصر أكثر من أربعين
سنة « أنه كان إذا ابتدأت زيادة النيل خرج بنفسه وكشف عن الجسور ،
ورتب في كل جسر من الأمراء من يتولاه ، وجم المهندسين والرجال لعمله ،
ومتى اختل جسر عاقب متوليه أشد العقوبة ، فعمرت بذلك أرض مصر في أيامه
عمارة زائدة ^(١) .

كما أنهم عقدوا المعاهدات التجارية مع أهل البندقية وغيرهم ^(٢) ، وأصبحت
مصر ذات مكانة عالية في الزراعة والتجارة ، واسطة بين الشرق وأوروبا .
والحالة هذه لم تتغير في أول عهد الدولة المملوكية ، إلا أنهم اتسموا أكثر
في عقد المعاهدات التجارية ، وأدخلوا بعض أنواع الصناعات في البلاد
كالغزل والنسيج .

ولكن كل هذه الأموال كانت تُنفق على الجيش ومُعداته ، وبناء
الاستحكامات ، والقلاع والحصون ، وما بقي بعد ذلك يُستخدم في الإصلاح
الداخلي .

(٢) ومع ذلك كثيرا ما كانت تنتاب البلاد أزمات اقتصادية ، وهزات
اجتماعية تسكاد تودي بحياة البلاد ، فكان الفلاء يشتد ، والأمراض تنتشر ،
ومياه النيل تقل ، والأسعار ترتفع ، والوقيات تكثر ، والجوع يفتك بالناس ،

(١) السلوك ١/٢٦٠

(٢) انظر كتاب مصر في العصور الوسطى : ٤٦٩

فكثر السؤال ، وامتدت الأيدي إلى الخطف والسلب ، وصار أمر الموتى أكثر شغل الأحياء ، وجهر الناس بفعل المفكرات وارتكابها في رائمة النهار ، وكثرت المردة وخطفت الأمتعة ، وكثرت القتل ، ولم يؤخذ لهم بثأر ^(١) ، وأكل الناس بعضهم بعضا ^(٢) ، فاضطر أهل مصر إلى الرحيل بأهلهم فراراً من الجوع ، أو من القتل .

كما كانت مصر لا تعدم عاربة الطبيعة لها ، فكانت تهب عليها عواصف شديدة تهلك الحرث والنسل ^(٣) ، وترأكت المصائب على الناس ، فغلب على جمهورهم الحزن والاستسلام ، وانتشر بينهم الشmour بالمعجز والضعف التام ، ولجأوا إلى الله رجاء أن يمدّهم بمونه ويكشف عنهم الضر ، وإلى الرسول يستغيثون به على دفع ما حاق بهم من بؤس ، وإلى الأولياء يسألونهم العون على قضاء الحاجات .

(٣) وكان المذهب الإسلامي السائد لهذا العهد هو المذهب السنّي الذي أقامه الأيوبيون على أنقاض المذهب الشّيعي مذهب الفاطميين ، وكانت طبقات الشعب تتكون من سكان البلاد الأصليين ، والجنش ، وكان جمهوره من المنصرين الكُرديّ والتركيّ ، وأهل الذّمة - النصارى واليهود - وكان المسيحيون يتميزون عن غيرهم بتلك الزّنارات التي كانت تطوّق أوساطهم ، في حين تميّز اليهود بلبس الماهم الصفراء ^(٤) .

ولم يتغير في أول عهد الدولة المملوكية مذهب الدولة ، لأنّ الناس على دين ملوكهم ، والمالكي أتباع الأيوبيين ، إلا أن طبقات الشعب حدث فيها تغيير ، فكان يتألف من المالكي أرباب السيف ، وقد عاشوا عيشة تكاد تكون منفصلة عن الشعب ، والموظفين الذين كانوا يتولّون شئون البلاد من أعمال

(١) انظر السلوك للعقريزي ١٣٠/١ - ١٣٨

(٢) السلوك ١٥٦/١

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٣ .

(٤) مصر في العصور الوسطى : ٤١٣ .

الحِسبة والقضاء ، ومنهم العلماء ، والتجّار والسّناع ، وهم أغلب سكّان المدن ، والفلاحين ، وهم المرتبطون بالأراضي الزراعية .

(٤) وابن أبي الإصبع ممّن عاش في المصّرّين : عصر الدولة الأيوبية ، وصدر الدولة المملوكية ، وكان من أفراد هذا الشعب ، ومما لا شك فيه أنه لم يكن من طبقة المحاربين ، ولا المزارعين ، وإنما كان من العلماء الذين بذلوا أقصى جهدهم في التأليف ، وحياتهم في الشعر ، ولم أعثر فيها قرأت من كتب التاريخ ، وكتب الطبقات ، ولا في مؤلفاته على ما أستطيع أن أعرف على وجه التحديد منه وظيفته في الدولة ، والذي عرفته أنه كان مقصدا للناس بأوى إليه الشعراء ويعرضون شعرهم عليه ، فيختار منه ما يروقه ، ويردّ مالا يُعجبه ، أو مالا يتفق مع قانون الشعر في نظره ، ولا شك أن هذه هي وظيفة النّوّدب والرّئيّ الفاضل ، وإن لم يكن مكلفا بذلك .

* * *

عصره العلمي

(١) إنني إذا أخذت في بيان الحياة العلمية في عصر ابن أبي الإصبع طال بي الحديث لما كان في هذا العهد من فتن واضطرابات ، وحروب ومجاعات أثرت في الحركة العلمية ، وبخاصة في الأدب . فأدب مصر قبل هذه الفترة كان أدبا فاطميا ، لأن أدباء الدولة الفاطمية كانوا مجتهدين لخدمة عقيدتهم ومذهبهم الشيعي ، فلما انتهت تلك الدولة ، وقامت الدولة الأيوبية عطف رجالها على العربية وآدابها ، لأنهم وإن لم يكونوا عربا فقد ناصروا اللغة العربية ، لأنّها لغة دينهم الذي اشتهروا بحمايته والدّود عنه ، ولأنهم لا غنى لهم - وهم غرباء عن مصر - أن يستعينوا في حكمها بمن فيها من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء ، فمُنح القوم بأدب لغتهم عناية فاقت عناية المشارة إذ ذاك ، وكانت الحركة العلمية وآثار العلماء والمؤلفين أكثر مما كانت قبل ، وتنبّغ العلماء في كل فن ، فكان عصر الدولة

الأبوية والملوكية حافلاً بالتأليف والمؤلفين ، لأن من عجز عن مناوأة أعداء الإسلام بسيفه ، وجد مبدناً فسيحاً يسبهم فيه لرفع شأن بلاده بقلمه وعلمه ، فظهر في هذا العصر كثير من المؤلفات ، ككتاب « منهج القاصدين في فضائل الخلفاء الراشدين ^(١) » وكتاب « السؤل في مناقب الرسول ^(٢) » و « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ^(٣) » و « الآداب النافعة ^(٤) » و « المنهج السلوك في سياسة الملوك ^(٥) » و « المثل السائر ^(٦) » و « تحرير التحجير ^(٧) » ، وغير ذلك من مؤلفات العلماء ودواوين الشمرء .

(٢) وعنى صلاح الدين وخلفاؤه من بعده بتشييد المدارس وخاصة الدينية منها ، فبنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من مسجد الإمام الشافعى ، ومدرسة الناصرية ، والمدرسة السنية ، وبنى السلطان الكامل « دار الحديث ^(٨) » .

ولم تقف عناية الأيوبيين بالمدارس عند تشييدها ، بل وقفوا عليها الأوقاف الكثيرة ، ورتبوا لها العلماء ليدرسوا فيها ، وكثرت المناقشات والمباحثات في هذه المدارس ، وحضرها السلاطين وشجعوا عليها وعلى طلب العلم تشجيعاً كبيراً ، وكانت هناك فكرة تسيطر عليهم ، وهى « أنهم يحسنون إلى العلماء والفقهاء ، ويرون أن الإحسان إليهم أفضل من الإحسان إلى الفقراء ، لاشتغال الفقيه بالعلم عن التفكير فيما يغنيه ^(٩) » .

(١) لموتى الدين المقدسى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٠ .

(٢) لكمال الدين بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٤ .

(٣) لسبط بن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ .

(٤) لابن شمس الخلافة الأفضلى المتوفى سنة ٦٢٢ .

(٥) لأبى الفضائل عبد الرحمن بن عبد الله من علماء القرن السادس .

(٦) لابن الأثير ضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الواحد

المتوفى سنة ٦٣٧ .

(٧) لابن أبى الإصبع المتوفى سنة ٦٥٤ .

(٨) المواعظ والاعتبار للمقرئ ٣/٣٧٥ .

(٩) البداية والنهاية لابن كثير ١٦/١٣ .

وكان سلاح الدين رأس الدولة الأيوبية كثير التواضع ، محبا للناس ، وخاصة الفقهاء وأهل الخير منهم ، ويستحسن الشعر الجيد ، ويردده في مجالسه فقصيدة كثير من الشعراء . وعلى طريقته سار خلفاؤه ، إذ كان منهم شعراء وخطباء ، فمظلم شأن الشعر والخطابة ، وكثر الخطباء والشعراء ، وكان جلّهم التحريض على الجهاد ، والكفاح ، والترهيب من التخاذل . وظهر أيضا الأدب القصصي لنشر الدعوة إلى قتال الصليبيين ، وعُيِّن القصاصون في المساجد والجيش يذكرون للناس سير الأولين ، فيشعلون في القلوب الرغبة في الجهاد .

(٣) وما لا شك فيه أن علوم الشريعة كالفقه والحديث وعلوم القرآن كانت تحتل المكان الأول في هذه الثقافة ، ولم يحظ الفقه والحديث ، ومسائل الخلاف بحماسة حكومة إسلامية بقدر ما حظيت في عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية ، وإذا كانت السيطرة العظمى في الميدان العلمي للفقه والحديث في العصر الأيوبي ، فعنى هذا أن العناية كانت على أتمتها بعلوم المتعلقة بالدين التي منها التفسير ، والفرائض ، والقراءات ، والأصول ، وما إليها من المواد التي تتألف منها الثقافة الدينية ، ولم يكن هناك تخصص على ، بل كان العلماء يجمعون ألوانا من المعرفة ، وينقلب على أحدهم الميل إلى ناحية معينة من العلوم . وظفر النجوى والبلاغة في هذا العهد بحظ عظيم من العناية ، وسبب ذلك أن هاتين المادتين كانتا ضروريتين لدراسة القرآن والسنة ، بل إن الفقيه كان لا يمكنه أن يجيد دراسته دون أن تكون له دراية واسعة فيهما ، كما كانت بجانب هذه الثقافات الدينية واللغوية والبلاغية ثقافة أدبية ، إذ كانت للأدب سوق نافقة في هذا العصر ، وكانت دراسته كذلك تُمِين على فهم الدين ، وعلى تكوين ذوق لغوي مستقيم ^(١) .

(٤) وقد عانت البلاد في هذا العصر ويلات الحروب الصليبية التي كان لها خطرها على كيانه السياسي والاجتماعي ، فلا عجب أن تكون شغل أهلها

(١) انظر الروشتين في أخبار المولتين ٢/ ٢١٩ .

الشاعر ، وأن تؤثر في عقولهم وآدابهم ، فكان أدبهم أدبا عاطفيا حماسيا ، نفذ به عاطفة الدين ، وعاطفة الجنس ، وعاطفة اللغة ، على عكس أدب الفاطميين الذي كان يعتمد على الطابع العقلي ، إذ الأديب أو الكاتب أو الشاعر أمام مبادئ ودعاوى يريد أن يقيم الأدلة عليها ، ويوضح البراهين على صحتها ، ليصل بذلك إلى درجة الإقناع .

فظهر في أدب الأيوبيين كلام كثير عن الدين ، والآخرة وما فيها من حساب وعقاب ، وحشر ونشير ، وجنة ونار . كما ظهر في أدبهم قصائد طريفة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، والتغني بما تجلّى من آيات باهرات ساعة مولده ، وساعة بعثته ، ولابن أبي الإصبع قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبين فيها بلاغة القرآن ووصفه .

٥ - واتّجه الأدباء والشعراء بالأدب والشعر اتجاهها جديدا بالفن فيه ، وهو الإغراق في البديع والحلية اللفظية ، وقهر الماني ، وجعلها تابعة للألفاظ ، ولا سيما أنه قد ابتدعت في هذا العصر أنواع شتى من الحلية اللفظية أغرّم بها الكتّاب والشعراء ، قيّدوا أنفسهم بقيودها ؛ حتى أصبحت أحب إليهم ، وأسهل عليهم من طريقة الترسّل ، ولكن قلة قدرتهم على تملك زمام البلاغة أتاح لمساوي هذا الاتجاه أن تظهر في أدبهم ، واستطالت الألفاظ على الماني فجنت عليها ، وفي هذا الطريق سار المصريون شوطا بعيدا حتى وصلت أنواع البديع في القرن السابع الهجري إلى مائة وعشرين نوعا على يد ابن أبي الإصبع .

كما أن بطولة صلاح الدين وأولاده وقواده في حروب الصليبيين بمصر والشام ظلت خلال قرن تقريبا .

أقول : إن هذه الانتصارات التي توجت بالنصر على الأوربيين جملة مكان القول ذا سمة أمام الشعراء ، وكان ذلك حافزا إلى أن يبلغ الشعر درجة عظيمة ، وأن يكثر عدد شعراء الدولة الأيوبية .

٦ - ومما لاشك فيه أن ابن أبي الإصبع شارك في الحياة العقلية لهذا العصر ، فكان مؤلفاً من المؤلفين ، وأديباً من الأدباء ، وعالماً من العلماء ، وشاعراً من الشعراء ، له التصانيف القيّمة في البديع ، وعلوم القرآن ، فألف « تحرير التحجير » في بديع الشعر والنثر ، و « بديع القرآن » كما صنّف في علم العروض والقافية « الكافية في علم القافية » .

واستجاب للروح الدينية التي كانت مسيطرة على العلماء ، تدفعهم إلى دراسة الفقه والحديث وعلوم القرآن ، فألف « الكافية في تأويل تلك عشرة كاملة » و « الخواطر السوانح في أسرار الفوائح » ، وهذا ليس بغيره عليه ، فإن الطّلم على كتابه « بديع القرآن » مُحيسّ اهتمامه بتفسير بعض الآيات ، وتأويلها وتخريجها ، ومعارضة بعض المفسّرين ، كما لم يُفعل الكلام عن السموات السبع ، وما في ذلك العدد من السرّ الإلهي ، وتكلم عن النجوم والاهتداء بها ، وأنوائها ، وإزال الغيث والمقدمات التي تتقدمه من الرعد والبرق وتصريف الرياح ، كما كان له الشعر البديعيّ الجزل ، وقد قاله في أغراض شتى سأعرض لها عند الكلام على شعره فيما بعد ، بيد أني لم أر له شعراً سياسياً فيما قرأت له من الشعر ، بل كان مُجلّلاً ما رأيت له كلمات في مدح الرسول وصفات القرآن والوصف والمجاء ، ولعلّ لابن أبي الإصبع شعراً سياسياً في وصف المارك والإشادة ببطولة سلاطين همده ، ورجال دولته ، ولكنه لم يصل إلينا كثيره من مؤلفاته التي ذكرها في كتابيه « تحرير التحجير » و « بديع القرآن » .

كانت الحالة العلميّة على ما وصفت أيام الأيوبيين ، وقد أوضحتُ تأثر ابن أبي الإصبع بها ، وأثره فيها ، فلمّا حلّت الدولة المملوكية ، لم تتغيّر هذه الحالة فجأة ، بل استمرّ النشاط العلميّ والأدبيّ فترةً من هذه الدولة الحديثة ، لأن الحياة الاجتماعية والعلمية لأنّمة من الأمم لا تتحوّل جملةً بتحوّل الحاكمين .

ثانيا - حياته

نسبه :

هو أبو محمد زكي الدين عبد المظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله
ابن محمد المصري، المعروف بابن أبي الإصبع المدواني^(١).

من أين أتته هذه الكنية ؟ ولم لُقّب بالمدواني ؟ أكان من عدوان ؟
أيتصل نسبه بذي الإصبع الشاعر القديم ؟

لعل هذه الكنية كنية أبيه ، وأبوه كنى لأمر ما بأبي الإصبع ، فأضاف
إليه الناس « المدواني » لما كان « أبو الإصبع » يحضر في الدهن « ذا الإصبع »
وخاصة أن لقب المدواني لم يأت في نسبه إلا في مصدر واحد .

أو لُقّب بذلك تيمنا لما كان له من شهرة ذائعة في الشعر ، وإنى لا أستبعد
اتصال نسبه بذي الإصبع المدواني الشاعر الجاهلي ، وإن كانت سلسلة النسب التي
وردت له فيها وصلت إليه من كتب التراجم والطبقات والتاريخ لا توصل نسبه إلى
المصر الجاهلي ، كما أنه لم يرد على لسانه أو في مؤلفاته ما يشير إلى نسبته إلى
« ذي الإصبع » وخاصة بعد الاطلاع على ترجمته في النسخة التي رمزت لها
بالحرف (ا) والتي يقال عنها إنها كتبت في عهد المؤلف^(٢).

(١) ترجمته في مسالك الأبحار ، ٢٣٠/٦ مخطوطة ، عيون التواريخ ٢٠ : ٧٣ - ٧٥ ،
حسن المحاضرة ٣٢٧/١ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣٧/٧ ، المنهل الصافي
٤٠٥/٣ مخطوط ، كشف الظنون ١٨٨/١ ، فوات الوفيات ٣٧٤/١ ، شذرات الذهب
٤٤٣٩/٥ ، معاهد التنصيص ٤ / ١٨٠ ، الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلي ٢ / ط
مصر ١٣٣٧ .

(٢) هذا قول معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، على الميكروfilm لهذه النسخة .

مولده :

قيل إنه ولد رحمه الله بمصر سنة ٥٨٥ ، وهي السنة التاسعة عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين الأيوبي على مصر ، وقيل إنه ولد في سنة ٥٨٩ أى السنة الأولى من ولاية الملك العزيز بالله عماد الدين أبي الفتح عثمان على مصر ، من أبوين لا أعرف لهما نسبا ولا وظيفة أكثر مما ذكرت .

نشأته :

بعد هذا التقديم الذى كشفت فيه عن عصره السياسى والاجتماعى والثقافى ونسبه ومولده والبيئة التى ولد فيها ، أريد أن أبين كيف نشأ فى هذه البيئة ، وكيف كانت حياته فيها .

١ - عاش ابن أبي الإصبع فى هذه المملكة المترامية الأطراف يَجُول بين ربابها ويحطى بما فيها ، استوطن القاهرة فكان شاعرَها الأوّل ، وقت أن كان جمال الدين أبو الحسين الجزّار شاعرَ الفسطاط^(١) ، ومن الطبيعىّ المسلّم به أن يكون قد تربى فى مدارسها التى أنشأها سلاطين الدولة الأيوبية ، إلى أن كان أديبها الذى تأوى إليه الشعراء ، يمرضون شعرهم عليه ، ويطلبون منه الإجازة به ، كما فعل ذلك « جمال الدين الجزّار » شاعر الفسطاط ، إذ روى عنه صاحبُ « المنهل الصافى »^(٢) « مانصّه : » قيل . لما كان أبو الحسين الجزّار صغيرا ، نظم أبياتا قلائل ، وكان أديب ذلك الزمان ابن أبي الإصبع ، فأخذه أبوه ، وتوجه به إليه وقال له : ياسيدى ، قد نظم هذا الولد شعرا ، واشتهى أن يمرضه عليك ، فقال ابن أبي الإصبع : قل . فلما أنشدته قال له : أحسنت ، والله إنك عوّام مليح ، فراح هو ووالده ، وبعد أيام عمل والده طعاما ، وحمله إلى

(١) الحركة الفكرية فى عصر الدولة الأيوبية ٢٥٧ ، والمغرب لأبى سعيد ١٢١/٤ .

(٢) الجزء الثالث ٤٠٥ مخطوط .

ابن أبي الإصبع ، قال له : لأى شيء فعلت ؟ فقال : لشكرك ولله الملوك .
فقال : أنا ما شكرته ، فقال : ألم تقل له : إنك عوام مليح ؟ فقال : ما أردتُ
بذلك إلا أنه خرج من بحر إلى بحر .

كما كان بليغتهما الأوحى الذى لم يُلحق شأوه ، ولم يُشق غباره ، وهذا
ما حدثنا به صاحب « مسالك الأبصار » عندما تكلم عن علماء البلاغة
فى مصر ، فقال : « وأما مصر فلم يقع إلينا من أهلها إلا واحد ، وواحد
كالألف ، وهو الزكىّ عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المروفيّ بابن
أبي الإصبع ، جدّ حتى انقاد له الخطّ ، وسهر حتى رقق عليه قلب الليل الفظ ؛
طلالما عا الشكّ يادراكه ، وتنحى سهيل فوقه فى أثره ؛ مرّ على قطائم
الكواكب فساق فلائصها ، وسام فى طرأيد الليل ففائصها ؛ وكان بمصر وله
مثل مقطّعاتها ، ونظير مصبّغات ربيّتها ومصبّغاتها ، قطع شعره السحر
الحلال ، والبارد المذب لأماء النيل الزلال ، وعليه تخرّج جماعة من المتأخّرين
من الأدباء . »

إننا نأخذ من ذلك فوق ما تقدّم من مكائته الفذة بين علماء البلاغة ، أنه
كان رجلاً عصامياً ، استطاع أن يخلّق فى سماء الفنّ واللم والمعرفة ، وأن
يجلّى فى حلّبتها بحمده واجتهاده ، وأنه بجانب ذلك كان أستاذاً يتخرّج عليه
الأدباء والعلماء ، وقد كان بهذا جديراً ، فهو واحد كالف على حدّ تمبير النض .

٢ — وقد سبق أن قلنا : إن مدارس العصر كانت كثيرة ، وخاصّة
فى القاهرة التى كان يسكنها ، ولكنّ كتب التاريخ والتراجم التى ترجمت له
لم تحدّثنا أنه ذهب إلى مدرسة تتلمّ فيها ، أو جلس إلى شيخ تلقى العلم عليه ،
أو نزح إلى بلد ليسهل من رحيق علمه ، ولكنه مع هذا كلّه كان أديباً بليغاً
نحوياً فقيهاً . كما يدلّنا على ذلك صاحب السلوك^(١) فيما أورده فى ترجمته . وطبيعى
أن يكون قد تلقى هذه العلوم فى هذه المدارس على أساتذتها المشهورين فى هذه
الفنون ، أو تلقاها عن كتب الأقدمين من العلماء — وما أكثرها — ويظهر

ذلك جلياً لكل من بطالع كتبه ، فإنه يلمس مدى تأثره بمن سبقه من العلماء ، وخاصة « عبدالقاهر الجرجاني » و « فخر الدين بن الخطيب الرازي » صاحب « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » و « ابن سنان الخفاجي » صاحب « سر القصاحة » إذ أنه كثيراً ما ينقل عن هذه الكتب ، ويستشهد بما فيها من آراء . وأرجح أنه لم يخرج عن أبناء عصره وسنة الطبيعة ، أي أنه تعلم في مدارس ، وجلس في حلقات علمائها ، وبذلك لهم الرأي في عزة الواثق بنفسه ، كما يحدثنا في مقدمة كتابه « تحرير التحرير » أنه قابل التيفاشي^(١) ، وناقشه في البديع وأعجب به « وحسبته أنه يتأدب ويتمتع على كتب السابقين التي جمعها في كتابه ، وخاصة كتب البلاغة والبديع ، وصار يمرض رأى كل واحد في كتابه ويناقشه ، ويحلله تحليل العالم البصير ، والناقد الخبير ، فلم يعتمد على النقل فقط ، بل على النقل والنقد معا ، وتلك كانت حياته بين علماء عصره .

٣ - فأما من علمه ، فإن الناظر في آثاره ، وخاصة كتابيه « تحرير التحرير » و « بديع القرآن » ليلمح فيهما جلياً أن مؤلفهما كان أدبياً نابهاً كما يحس ذلك من شعره ، كما أنه كان دقيق الحس ، قوي الشعور بالجمال ، وقد جمع آراء من سبقه إلى التأليف في علم البديع ، وزاد عليها ، ورتبها ، وصنف فيها مصنفات قيّمة ، منها ما هو بين أيدينا ، ومنها ما لم يسمعني الحظ بالوقوف عليه ، أو الاهتمام إليه ، وإني سوف أضع بين يدي القارئ بعض النصوص التي تدل دلالة واضحة على شغفه بالبديع وحبه إياه ، وهذا ليس بغريب عليه . فالبيئة التي عاش فيها ، وتأثر بها هي التي أملت عليه ذلك ، كما أنني لست من فحوى مصنّفاته استمداده الفطري ، وذكاء الوقاد ، وكان لذلك كله أكبر الأثر في دراسته للبديع .

(١) الإمام العلامة شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن خدون القيسي ، ولد بتيفاش وسمع بها من أبي العباس المقدسي ورحل إلى مصر وتأدب على البغدادى وبرع في كثير من الفنون ، وله الشعر الحسن والنثر الجيد والمصنفات المفيدة ، وتوفي بمصر سنة ٦٥١ هـ ودفن بمقبرة باب النصر .

٤ - ودراسته إياه لم تقف عند جمعه ، بل تمدته إلى نقد تلك الأنواع ،
وتغيير تسمية ما لم تعجبه تسميته ، أو ما لم يجد اسمه بطابق مسماه ، كما فعل
بأبواب الأجدابي^(١) « التسليخ » ، التشرير « فسمى الأول « تشابه الأطراف »
والثاني « التوأم » ، وكتابه « بديع القرآن ، يدل دلالة واضحة على مقدرة
المليحة ، فلقد درس أنواع البديع بالقرآن دراسة وافية ، واستقصى في التليل
من الألفاظ القرآنية عددا من الأنواع البديعية . ففي باب الاستدراك استشهد
بقوله تعالى ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ يَتْنَةٍ وَيَخْشَى مَنْ حَى عَنْ يَتْنَةٍ ﴾^(٢)
فجعل هذه الآية استدراكا للآية السابقة ، فزال الإشكال الذي
وقع في الآية السابقة ، وارتفع ما قدر من الاحتمال ، وأبان عن المعنى أحسن
بيان ، إلى توضيح ما في ذلك من عجيب النظم ، وبديع الترتيب ، وحسن
النسق ، وغريب التنكيت ، وبلغ الإيجاز من وجوه الإعجاز ، فحصل في هذه
الكلمات أربعة عشر نوعا من البديع : الإيجاز ، والترشح ، والإرداف ، والتثيل ،
والمقارنة ، والاستدراك ، والإدماج ، والإيضاح ، والتهديب ، والتليل ،
والتنكيت ، والمساواة ، وحصن النسق ، وحسن البيان ، كما استشهد في باب
التوهم بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُبْكَتُوكُمْ يُؤْكَدُوكُمُ الْأَذْبَارَ ثُمَّ
لَا يُنْصَرُونَ ﴾^(٣) فيعلق عليها بما يفيد معرفته لعلى النحو والتفسير معرفة
جيدة ، استطاع بفضلها أن يخرج الآية تخريجا يؤدي إلى المعنى المقصود ،
وينمى على النحوين تخريجهم لمطف غير المجزوم على المجزوم ، فيقول : « وهذه
الآية يؤلف فيها طريق الإعراب في الظاهر من جهة عطف ما ليس بمجزوم
على مجزوم ، ليمدل عن الظاهر إلى تأويل يصحح المعنى المراد ، فإن المراد
- والله أعلم - بشارة المسلمين بأن هذا العدو لا ينصر أبدا ما قاتل المسلمين ،

(١) أبو اسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الطرابلسي اللغوي المغربي
الإفريقي . ويعرف بابن الأجدابي توفي في حدود سنة ٦٠٠ هـ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١١١ .

ليتكمل سرور المسلمين بخذلان عدوهم في الحال وأبدا في الاستقبال ، ولو عطف الفعل على ما تقدم على قاعدة العربية الظاهرة لما أفاد سوى الإخبار بأن العدو لا ينصر في الحال ، وهو زمان المقاتلة ، ووقت التولية ، ولا يعطى ذلك خذلانهم على الدوام في كل حال ، فقد قال النحاة : إن الوجه في هذا الموضع أن يقال : هو من عطف الجمل ، فإن التقدير : ثم لم لا ينصرون ، ولكن هذا الكلام وذلك التخريج لم يعجبه ، ولم يرقّ عنده ، فملتق عليه بما يدل على فهمه لانهو والتفسير وحذقه بهما ، ومعرفة التامة بأسباب النزول ، فيقول : وعلى هذا التخريج أى تخريج النحويين لا يزال الإشكال باقيا ، ومع ذلك فإنه يقال : لم عدل عن مجيء الكلام على قاعدة العربية المعروفة إلى ما يحتاج إلى التأويل ؟ وهلا قيل : وإن يقانلوكم بولوكم الأدبار ثم لا ينصروا ؟ فيحتاج الجيب إلى أن يقول : لما كان مجيء الكلام على ما ذكرت غير محتاج إلى تأويل لا يوفى بالمعنى المراد ، لأن المعنى المراد بشاره المسلمين أن عدوهم متى قاتلهم كان مخذولا ، ومجيء الكلام على ما ذكر المتراض لا يوفى بذلك المعنى ، فإنه لا يعطى إلا عدم النصر حالة المقاتلة فقط ، فعدل عن ذلك إلى ما جاء به التنزيل ، ليكون مجيء الثانى غير مجزوم ، وقد عطف على مجزوم منها السامع إلى السبب الذى من أجله عدل عن قاعدة الإعراب ، فيفطن إلى أن ذلك إشارة إلى خذلان العدو أبدا ما قاتل المسلمين لمجيء الفعل دالا على الحال والاستقبال ، أما الحال فخذلان العدو حالة القتال ، وأما الاستقبال فالبشارة بأنه كذلك ما وقع منه القتال ، ولذلك عطف بـ « ثم » من دون حروف المطف لما يدل عليه من التراخي والمهلة ، لىأتى بعض الألفاظ ملأنا لبعض ، فإن « ثم » دون حروف المطف ملائمة لما عطفه من الفعل الدال على الاستقبال .

٥ - وتكلم في باب الإبداع عن قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِمِي رَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

فقد استخرج منها ثمانية عشر ضرباً من البلاغة سوى ما أتمّد منها مثل الاستعارة
فإنها تعدّت في موضعين في كلتي الابتلاع والإفلاع ، وهذه الضروب هي المناسبة
بين ابلعى وأقلى ، والمطابقة اللفظية بين السماء والأرض ، والاستعارة في ابلعى
وأقلى ، والمجاز في قوله « ويا سماء » فإن الحقيقة يا مطر السماء ، والإشارة
في قوله : « وغيض الماء » ، لأن الماء لا يفيض حتى يقلع مطر السماء ، وتباع
الأرض ما يخرج منها من عيون الماء ، والإرداف في قوله : « واستوت على
الجودى » ، فإنه عبّر عن استقراره على السفينة في هذا المكان وجلسها جلوساً
متمكناً لا زيف فيه ولا ميل ، والتمثيل في قوله : « وقضى الأمر » ، والتعليل
لأن غيض الماء علّة الاستواء ، وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه أحوال
الماء حالة نقصه . والاحتراس من توّم من يتوّم أن الهلاك ربّما عمّ من
لا يستحقّ الهلاك بالدعاء على المالكين ، والانفصال ، فإن لقائل أن يقول : إن لفظة
القوم تستغنى عنها ؛ فإنه لو قيل : « وقيل بعدا للظالمين » لم الكلام والمساواة
لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص عنه ، وحسن النسق في عطف القضايا
بعضها على بعض حسباً وقمت ، الأول فالأول ، والتلاف اللفظ مع المعنى ليكون
كل لفظة لا يصلح غيرها مكانها ، والإيجاز ، لأن الله تعالى اقتصر القصة بلفظها
مستوعبة في أخصر عبارة بألفاظ غير مطوّلة ، والتسليم لأن من أول الآية
إلى قوله تعالى : « أقلى » يقتضى آخرها ، والتهديب لأن مفردات الألفاظ
موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة
وحسن البيان حيث أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ، والتسكين ،
لأن الفاصلة مستقرّة في قرارها ، مطمئنة في مكانها ، والانسجام ، وهو تحدّر
الكلام بسهولة وعذوبة سبك ، والإبداع الذي هو في مجموع الآية ، علماً بأن
هذه الآية لا تتجاوز سبع عشرة لفظة .

فأى عالم هذا الذى يبحث فى ألفاظ قليلة يستخرج منها أنواعاً بديمية كثيرة ثم لا يترك النحويين يخرجون الآيات تخريجاً يوافق قاعدتهم ، وإن لم يوافق المقصود من الآية ، بل ويرشدهم إلى المعنى المقصود إرشاد عالم بالنحو والتفسير كما أسلفت ، فلم يقف عند رأى النحاة مقلداً لهم ، مترسماً خطاهم ، ناهجاً طريقهم ، بل خرج الآية تخريجاً يقتضيه المعنى وإن خالف النحويين .

٦ - على أن جهود ابن أبى الإصبع لم تقف عند التأليف فى البديع واستخراجه من القرآن والشعر فحسب ، بل كانت له جولات فى النقدم الشعراء السابقين يتبهم شعره بشعرهم ، ويحسن ذلك الاتباع ، فها هو ذا فى باب الاستبصار من كتابه (تحرير التحجير) يوازن بينه وبين ابن الرومى^(١) فى بيت تبهم فيه ، وبيت ابن الرومى هو [البسيط]

سد السداد فبى عما يربكم لكن فم الحال مئى غير مسدود
وبيت ابن أبى الإصبع : [الكامل] .

هبنى سكت أما لسان ضرورى أهجى لكل مقصّر عن منطقى
وقبل أن أعرض للموازنة بينهما أقول : إن ما عقده ابن أبى الإصبع من الموازنة يشمل الموازنة اللفظية ، والموازنة المعنوية . واحتفاؤه بالبديع أكثر ، وسأعلق على كلامه بعد عرضه .

إن الناظر فى بيت ابن الرومى يجد أنه قد وقع له فيه من المحاسن البلاغية تسعة أضرب ، وهى التجنيس فى قوله : « سد السداد » ، والتفسير فى « عماريكم » ، والاستدراك فى قوله « لكن » وما بعدها ، والاستمارة فى قوله : « فم الحال » والتصدير فيما بين القافية وأول البيت ، والتمثيل لأن البيت خرج مخرج المثل ، والمساواة لأن لفظ البيت طبق معناه ، والائتلاف لأن كل لفظة من مفردات

(١) أبو الحسن على بن العباس بن جريج أى جيورجوس — المعروف بابن الرومى — الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، توفى سنة ٢٨٤ هـ ببغداد ودفن فى مقبرة باب البستان . وهذا البيت ليس فى ديوانه المطبوع ، انظر الصناعتين : ٢١٥ .

ألفاظه لا يصلح مكانها غيرها . والإرداف في قوله :

* لكن فم الحال منى غير مسدود *

على حين وقع لابن أبي الإصبع في بيته من الأنواع البديعة سبعة عشر ضرباً يحكيها على لسانه فيقول :

« وهي المطابقة في السكوت والنطق ، واستمارة اللسان للضرورة ، والمبالغة في قوله « أهجى » والتكميل في قوله « لكل مقصر » ، والتفسير في قوله : « من منطقي » ، والتمكين من أجل أن القافية مستقرة في مكانها ، والمساواة في تفاصيل البيت وجملة بالنسبة إلى بيت ابن الروي . فإن قوله « هبني سكت » أوجز من قول ابن الروي : « سدّ السداد في » ، لأن ملخص كلام ابن أبي الإصبع « سكت » وملخص كلام ابن الروي « سدّ في » وقوله : « أهجى » أوجز من قوله « غير مسدود » فهذا إيجاز تفاصيل البيت ، وأما إيجاز جملة فحروف بيت ابن أبي الإصبع اثنان وأربعون حرفاً ، وحروف بيت ابن الروي خمسة وأربعون حرفاً ، مم أنهما قد استويا في عدة المتحركات إذ في كلّ منهما سبعة وعشرون متحرّكاً .

وابن أبي الإصبع موثق في تقبّله لابن الروي . وبيته أوضح ، إذ أنه بعيد عن الكلفة ، بخلاف ابن الروي ، كما أن موقفه من شعر الجزّار غير بعيد .

* * *

ونقدّه لم يقف عند الشعراء ، بل كان يوجّهه كذلك إلى المفسرين ، ويحاجّهم وينازعهم الرأي ، ويدحض الحجة بالحجة ، فما هو ذا في باب « جمع المختلفة والمتولفة »^(١) يمرض رأى المفسرين لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَطْمَعِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا ﴾^(٣)

(١) بديع القرآن

(٢) سورة النساء ١٣ ، ١٤ .

ويقول : « ذهب بعض المفسرين إلى أن جمع ضمير الخالدين مشير إلى أن الوقوف مع حدود الله تعالى وطاعته أمر متبوع يجب الاقتداء به ، فكل من عمل به تناوله هذا الوعد ، وتمدّى حدود الله معصية ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فلا يجوز متابعة من يعمل به عليه ، فلذلك أتى بضمير الخالد في النار موّحداً . وذهب غير صاحب هذا الرأي إلى أن ضمير الخالدين في الجنة إنما جمع لقصد الملازمة في النظم بين جنّات وخالدين ، وجمع بين نار وخالد ليوسف الكلام باللامّة ، وحسن الجوار ، حتى يدخل في باب ائتلاف اللفظ بمعناه ، وهذا الرأي أوضح من الرأي السابق .

ثم يأتي برأيه هو ، وهو أنّ سبب الجمع في الأول أن كلّ من دخل الجنة خالد فيها أبداً ، وإن تفاوتت درجات الخالدين ، . بدليل قوله تعالى « وما هم منها بمخرجين » مطلقاً في حق كلّ من دخلها ، فساغ الجمع هناك ، ولم يسغ هاهنا ، لأن الخالدين في النار فرقة واحدة ، ولأن المنافقين كفار في الباطن ، والخالدين في الجنة طبقات وجماعات على مقادير درجاتهم ، بحسب ما أعدّ لهم به من أعمالهم وإن عمّم الخلود .

وإني أرى أنه لم يُرد برأيه هذا غير إثبات المعنى ، والنصوص عليه ، والتأويل في سبيل الوصول إليه : فهو وإن كان أوّل ووصل في هذه الآية إلى ما يريد فساداً يفعل في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ^(١) ﴾ وقوله تعالى . « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ^(٢) .

وإني مع اعتقادي بوجاهة رأيه السابق ، وهذا شأن البلاغيين في قضاياهم حيث يهرون المتول بأرائهم في ناحية ما من النواحي ، ثم لا يلبثون أن يتخلّوا

(١) سورة الجن : ٢٣ .

(٢) سورة يونس آيتا ٤٢ ، ٤٣ .

عنها في ناحية أخرى إذا وجدوها لم تسر معهم ، وعلى سَنَنهم ، أرى الحل لهذا الإشكال أن « من » يراد بها المفرد والجمع ، فمن أراد المفرد نظر إلى اللفظ ، ومن أراد الجمع نظر إلى المعنى . وقوى جانب المعنى في آية الوعد قوله : « يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار » فالذي يدخل الجنات جمع ، وقوى جانب اللفظ في الوعيد قوله : « يدخله ناراً » .

* * *

وزاء في باب « الانسجام » ينفي الشعرَ عن القرآن ، ويردّ على من أثبتته فيه ، وإن كان الرد في بديع القرآن مقتضياً فإنه كما قال بسط الردّ في كتابيه « الشافية في علم القافية » و « الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وبين كلام خصومه » ، ولم يسمدني الحظّ بالوقوف على هذين السكتين لعدم وجودهما ، وهذا نصُّ ما قاله في بديع القرآن : « وأما القرآن العزيز فلم يقع فيه من ذلك الشعر إلا ما هو على مثال البيت فقط ، والبيت المفرد لا يسمى شعراً قصد أو لم يقصد ، وعلى ذلك أدلة لا يقسم الكلام لذكرها ، وقد أثبتُ بها مستقصاة في كتابين أحدهما : « الشافية في علم القافية » والآخر « الميزان » .

وأرى أن رده على من أثبت الشعر في القرآن ضعيف ، من حيث إنه يثبت وجود الشعر في القرآن بالبيت الواحد . والحقيقة أنه ليس فيه شعر بالبيت الواحد المقصود ولا بأكثر من البيت ، ولكن خيّل لذوى القرائح السقيمة والمقول الضالة أن القرآن شعر ، ولم يخرج ما ادّعوه شعراً عن كونه كلاماً موزوناً فقط ، وغير مقفى ، ونحن نستطيع أن نزن كلّ كلام ينطق به أيّ إنسان ، ونستخرج البحرَ الذي يتفق مع وزنه ، ولا نستطيع أن نقول عنه إنه شعر ، ولنسُدّع الكلام في هذا جانباً من حيث إنه ليس من أهدافنا .

* * *

ابن أبي الإصبع الشاعر

٧ - تكلّمت عن ابن أبي الإصبع شاعرا بمد أن تكلّمت عنه عالما وناقدا ، وليس لدى من شعره سوى مقطّعات يسيرة لا يستطيع الدارس أن يصل إلى حكم سليم عليها من الناحية الشعرية ، والناظر في شعره يتبيّن جليّا أنه عاش عيشة الفتنين المجيدين ، وأنه وهب نفسه للجهل ، وفكره للخيال ، فقد عاش حياته في القاهرة وضواحيها ينتقل بين ربّاه وخامئها ، ويجول بين مُزوجها وجداءِ ولها ، وهو شاعر الطبيعة ومصوّرها ، قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة ، وجمال الفن ، فراح يُبرز هذا الجمال الممنوّى في صور مختلفة من الجمال اللفظي ، فانتقى الألفاظ الصافية ، واختار الألوان الزاهية ، ودبجها بزخرف بديعه ، ووّشأنا بكثير من مجازّه وتشبيهه ، كما وصف كلّ ما وقع عليه بصره ، وسمعت به أذنه .

وإني أعرضُ الآن لأغراض الشعر التي عرفها ابن أبي الإصبع ، والتي أمكنني أن أستخرجها مما عثرتُ عليه من شعره ، وليس معنى ذلك أن الأغراض التي لم تأت في شعره لم يعرفها ، أو يتكلّم فيها ، بل قد يكون عرفها وقال فيها شعرا لم يصل إلينا فيما وصل إلينا من شعره ، وهما ذى أغراض الشعر عنده :

* * *

(١) تكلّم في الوصف ولكنّه لم يصف معركةً حربيّةً ، ولا ركوبَ سلطان ، ولا فتح مدرسة ، ولا وصف بناء مشيّدًا ، بل وصف الحجر وكاساتها ، والطبيعة وعواصفها ، ولم أدر لم وصف الحجر وهو فقيه ، أكان يتناولها ؟ أم كان كلامه عنها من باب المحاكاة ؟ وإني أرجّح أن وصفه إياها كان من باب المحاكاة ، لأنّ جُلّ شعراء عصره كانوا فقهاء يتورّعون عن شرب الخمر .

ومن وصفه لمجلس شراب^(١) [الطويل] :

وَسَاقٍ إِذَا مَا ضَاخَكَ الْكَاسُ قَابَلَتْ
فَوَاقِعُهَا مِنْ تَنْفِرِهِ اللَّوْلُؤُ الرُّطْبَا
خَشِيتُ وَقَدْ أَمْسَى نَدْبِي عَلَى الدُّجَى
فَأَسَدْتُ دُونَ الصَّبْحِ مِنْ شَعِيرِهِ مُجْبَا
وَقَسَمْتُ شَمْسِ الطَّائِسِ فِي الْكَاسِ أَجْمَا
وَيَا طُولَ لَيْلٍ قُسِّمْتُ شَمْسُهُ مُنْهَا
وقوله في وصف زَوْبَةَ: [الطويل].

عَلَا وَهَجُ الْإِعْصَارِ عِنْدَ التَّفَافِهِ فَانْجَلَّ عَيْنِي أَنْ تَغْمُضَ جَفْنَيْهَا
كَرَاقِصَةٍ قَدْ أُسْرِعَتْ دَوْرَانَهَا
إِذَا انْفَلَتَكَ لَقَّتْ عَلَى الْخَصْرِ كَمَيْهَا
وكقوله أيضاً^(١): [السريع].

أَقُولُ لِلنَّاسِ وَقَدْ أُنْذِرَالِ إِعْصَارُ مِنْ شَاهِدَةٍ فِي الْهَوَاءِ
تَمُودُوا فِي الْأَرْضِ مِنْ فِتْنَةٍ غِبَارُهَا يَصْمَدُ نَحْوَ السَّمَاءِ
وله في وصف فرس أَدَمَ مَجْجَلٍ^(٢): [الطويل].
وَأَذَمَ جَارَى الشَّمْسِ فِي مِثْلِ لَوْنِهِ

مِنْ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ
فَوَاقٍ إِلَيْهِ قَبْلَهَا مَتَمِّلًا فَأَعْطَاهُ مِنْ أَنْوَارِهِ قَصَبَ السَّبْقِ
والذي ألاحظه على وصف ابن أبي الإصبع أنه وصف حَسَى ليس فيه
انفعال نفسي ولا تحليل.

* * *

(١) مسالك الأبصار ٦/٢٣١.

(٢) معاهد التنصيص ٤/١٨.

(ب) ومن أغراضه التي عثرتُ عليها في شعره الغزل ، وهو وإن كان من أغراض الشعر الدأعة ؛ إلا أنه كثر في شعر هذا العصر ، قال ^(١) : [الطويل]
تصدّقْ بوصل إنّ دميّ سائلٌ وزودْ فؤادي نظرةً فهو راحلٌ
فخذك موجود به البرّ والفنى وحُسنك مدمومٌ لديه المائلُ
أيا قرأ من حُسن وجنته لنا
وَعِظْلٌ عذاريه الضحى والأَسائلُ
تَنَقَّلَتْ من طَرْفٍ لِقَلْبٍ مع الندى
وهايك للبدْرِ التَّامِ منازلُ
إذا ذكرتُ عيناك للعَبِّ دَرَمَها من الحَجَرِ طَمَتِ بالدَّلَالِ الدَّلَائِلُ
أعاذِلْ قد أبصرتَ جيّ وحُسنه فإن لُتخِي فيه فَا أَنْتَ عاقلُ
وكقوله ^(٢) : [الطويل]

أيا عِبْلةَ الأُلْهَاطِ قَلْبُكَ عَنَتَرٌ ومالٍ على غاراته في الحِشَا صَبْرُ
نَعَمْ أَنْتِ يا حَسَناءُ حَفَساءُ عَصِيرنا
وشاهِدُ قَوْلِي أَنْ قَلْبُكَ لِي صَخْرُ
أما غزله بالنساء فلا ندرى أعن رغبة صادقة ؟ أم هي المحاكاة للسابقة من الشعراء أيضاً ؟

وأما غزله بالمدكّر فقد تورّط فيه بعض شعراء عصره ، سواء منهم العف والآثم ، ولينه عَفٌّ عن هذا النوع من الشعر ، على أن بعض الشعراء تنزّل فيمن يحب من النساء ، وكان خطابه مع ذلك المذكر ، فلمله من هذا القبيل .

(١) عيون التواريخ وفيات ٦٥٤ ٧٣ — ٧٥ ، فوات الوفيات ١/٣٧٤ مع تغيير يسير في الألفاظ ، وإن كان ابن حجة في خزائمه ١٣٩ ينسبها إلى ابن الساعاتي ، المنهل الصافي ٣٣٣/٢ مخطوط .

(٢) المنهل الصافي ج ٢ ٣٣٣ .

ولسنا بسبيل الدفاع عن الرجل ، وإثبات التقوى والورع له في هذا التقديم ، وإنما المهم هنا أن نزن شمرة لنعرف مكانه بين شعراء عصره وغيرهم من الشعراء .

* * *

ج - ومن الأغراض التي قال فيها ابن أبي الإسبع « الدح » وهو من الأغراض الشعرية القديمة ، وقد فترت فيه الماني الجديدة الجيدة ، كما نلح ذلك في مدحه للملك الأشرف موسى الأيوبي حيث يقول [الطويل] :

أرى الخلد يُبْدَى تارةً جنةً خَضُرًا
أَسْطَرِي به أَمْ خَطٌّ مِنْ صُدْغِهِ سَطْرًا ^(١)
عَجِبْتُ لَهُ خَدًّا تَوَرَّدَ خَجَلُهُ رَبِّكَ بِأَسِّ الصَّدْقِ فِيهِ الدُّجَى ظُهُرًا
رَفَعْتُ لَهُ عَنْ دَمْعٍ عَيْنِي ظِلَامَةً أُرُومُهَا عَطْفًا فَوْقَ عِلَى بُجْرَى
بِذَا الْعَالَمِ السَّفْلَى بَاتَ قَدْ غَدَا عَلَى الْعَالَمِ الْمُلوَى يُبْدَى بِهِ الْفَخْرُ
غَدَا جَمْعُ الْبَحْرَيْنِ شَرْطَ قِرَانِنَا أَلَمْ تَرَمْسِي فِيهِ قَدْ صَادَفَ الْخِضْرُ
قَرَانِ أَرَانَا رَجَّهَ الشَّمْسَ وَالبَدْرَا فَأَضْحَى لَنَا بِلَ لِلْأَنَامِ بِهِ الْبُشْرَى
بِهِ اجْتَمَعَا لَكِنْ ذَا لَمْ يَقْلَ لِقَا غَدَاةً غَدٍ : لَنْ نَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

وإن القاري لهذا الشعر ليحس أنه مدح زائف ، لم يصدر عن عقيدة ولا إيمان ، وقد بدأه بالنزل ، وبالغ في الدح ، وأسرف في المبالغة ليستجدي ، مما يدل على أنه كان فقيرًا غير طموح ، يحتاج إلى عطف الملوك والسلطين الذين كان يستجديهم بشعره ، ونلح هذا المعنى جليًا من قوله في الملك الأشرف موسى ^(١) [الطويل] :

فَضَحَّتْ الْحَيَا وَالبَحْرُ جُودًا قَدْ بَكَى الـ
حَيَا مِنْ حَيَاءٍ مِنْكَ وَالتَّطَمَّ البَحْرُ

(١) معاهد التنصيص ١٨/٤ والنهل الصافي ورقة ٣٣٣ .

(٢) مسالك الأبصار ٢٣١/٦ .

فيون مانيها صحاح^١ وأعين الملاحِ مراض^٢ في كواحيظها كسُر^٣
هي السحر فاعجب لامرئ جاء يبتنى

عواطف^٤ من موسى وصنفته السحر^٥

وقد شاع في هذا العصر مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وتراه في شعر
ابن أبي الإصبع ممزجا بحب النبي الكريم والحنين إليه ، كما يظهر ذلك من
قصيدة لم أعر إلا على مطلعها ، ووصف القرآن فيها ، ومطلعها ^(١) [الطويل] :

بِسُكْرِ الصَّبَا أَعْطَا فُهَا تَتَاوَدُ

فَالْحَاظُهَا سُكْرًا عَلَيْنَا تَعَزَّزِدُ

ثم وصف القرآن بعد ذلك بما لا يتصل بمدح الرسول الذي نحن الآن بصدده ،
وهذا المطلع لقصيدة بلغت عدتها ثلاثمائة وخمسة عشر بيتا من ديوان شعره لأفردة
بدائع النبي عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ، مع قطع في مدح أهل
البيت ، وسماه « صحاح الدائع » ومما جاء منها في وصف القرآن العزيز بعد تمديد
معظم آياته قوله :

وَأَبَتْهُ الْعُظْمَى بِلَاغَةٍ مَاهِ	أَتَى مِنْ كِتَابِ فَضْلِهِ لَيْسَ يَجْحَدُ
تَفَرَّدَ فِي عَصْرِ الْبَيَانِ بَيَانُهُ	بِأَسْلُوبِهِ إِذْ نَظَّمَهُ مَتَفَرَّدُ
وَفِي نَظْمِهِ بَعْدَ الْفَرَاغَةِ مَعْجَزُ	عَاشَنَّهُ لَمْ تَنْحَصِرْ فَتُحَدِّدُ
هَدَى النَّاسَ مِنْهُ لِلْبَدِيعِ بَدِيعُهُ	فَصَاعُوا حُلِيَ الْقَوْلِ مِنْهُ وَقَلَدُوا
بِعَمَى زَيْنِ الْمَرْءِ مِنْهُ كَلَامُهُ	فِيحِلُّو بِأَسْمَاعِ النُّورِيِّ حِينَ يُورَدُ
وَيُضْحِي لِمَا يَأْتِي بِهِ أَيْ رَوْنَقُ	يُعْظَمُهُ الْمُصَنِّعِي لَهُ وَيُجَحِّدُ
وَجَاءَ سَلْبًا نَظْمُهُ مِنْ مَعَايِبِ	بِلَا سَقَطَةٍ فِيهِ لِمَنْ يَتَفَقَّدُ

واعلم ! كثر ابن أبي الأصم من مدح النبي - صلى الله عليه وسلم -
لأسباب أمكنني أن أصل إليها بعد دراسة عصره وحياته ، فمن هذه الأسباب :

(١) بديع القرآن باب الاقتدار .

أولاً : ما كانت عليه البلاد من سوء الحال والفقر والمرض والفن والاضطرابات

بما حدا به وبغيره من الشراء أن يتوسلوا بالنبي ويمدحوه .

ثانياً : كان ابن أبي الإصبع قبيها ومفسراً وشاعراً ، فلم له رأى أن من العيب ألا يمدح النبي ويتواجد بذكره عليه السلام ، فأكثر من مدحه ، كما أن ذبوع التصوف في هذا العصر كان من بين الموامل التي دفنته إلى الإكثار من هذا النوع .

ثالثاً : لما كان ابن أبي الإصبع من رجال البديع . بل يُعتبر من العمدة التي اعتمد عليها أصحاب البديعيات من بعده ، وكان مولماً به ، فجَمَعَ منه ما جمع وألّف فيه كتابين ، كلّ هذا دفعه إلى الإكثار من مدح النبي — صلى الله عليه وسلم — لما يظهر في هذا النوع من المحسنات البديعية ، ولذلك نجد أصحاب البديعيات من بعده كلّ منهم يصوغ بديعته في مدح النبي الكريم مضمناً كلّ بيت نوعاً أو أكثر من البديع .

* * *

د — التصوف والزهد : لقد تردّد في شعره تفضيل الآخرة ، والزهد في الدنيا ، وجعلها قنطرة للآخرة ، وفي هذا يقول ^(١) [الخفيف] :

من يذمّ الدنيا بظلم فإنّ	بطريق الإنصاف أثني عليهما
وعظمتنا بكل شيء لو أنّا	حين جادت بالوعظ من مصطفينا
نصحتنا فلم ز النصح نصحاً	حين أيدت لأهلها ملأنا
أعلمتنا أن المال يقيناً	للبي حين جدّت عصرها
كم أرّتنا مصارع الأهل والأحـ	باب لو نستفيق بين يديها

(١) فوات الوفيات ١/ ٣٧٤ .

ولكم مهجة زهرتها اغترت رت فادمت ندامة كفتيها
أراها أبت على سبيل من قبلنا حين بدلت جنتيها
يوم يؤس لها ويوم رخاء فزود ماشئت من يومئذ
وتيقن زوال ذاك وهذا فاسئل عما تراه من حالتينها
دار زاد لمن تزود منها وهرور لمن يميل إليها
مهنط الوحى والمصلى التي كم عفرت صورة بها خديها
منجبر الأولياء قد ربحو الجنة فيها وأوردوا عينيهما
رغبت ثم رهبت ليرى كل لليب عقباه من حالتينها

فالقارىء لهذا الشعر يخيل إليه أن صاحبه كان صوفياً ، وواعظاً ومرشداً ،
يحذر من الدنيا وغرورها ، والسمى وراء لذاتها ، وهو فى هذه القصيدة لا يذم
الدنيا ، بل يذم من أسرف فى حبها ولها بها ، ويثنى على من يفتن إلى أنها
دار زوال موصلة إلى دار قرار ، مع أسلوب جزل ، والفاظ سهلة تحمل
فى ثناياها كل نوع من أنواع الخشوع والتدين .

هـ - ولقد هجا ابن أبى الإصبع ، والهجاء غرض من أغراض الشعر
القديمة والدأمة فى كل المصور ، وهو شاعر له أحاسيسه وعواطفه ، وتحيط به
بيئة فيها ما يسر وما يسوء ، فلا بد إذن أن ينفس عن نفسه ، ويسررى عن
عاطفته ، بهجاء يوجهه إلى من لا يرضيه حاله ، ولكن هذا الهجاء وذلك النقد
كانا بالفاظ بعيدة عن حوشى الكلام وفاحشه ، بل لم تتمدد وصف الشخص بما فيه
من عيوب ، وشعره خير دليل على صدق ما أقول ، كما أننى أراه بهجو إذا لم يحيد
من ممدوحه سخاء حيث يقول فى هجاء بخيل ^(١) : [التقارب]

(١) سالك الأبصار ٢٣١/٦

وَلَمَّا رَأَيْتُكَ عِنْدَ الْمَدِينَةِ جِئْتَهُمُ الْمُحْيَا لَنَا نَنْظُرُ
تَبَقَّتْ بُحْكَ لِي بِالْمَدِينَةِ لِأَنَّ الْجَهَامَةَ لَا تُمْطِرُ
فَهَا هَذَا يَهْجُو مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَاعِي الْمَدِينَةِ ، مستعملاً في ذلك ألفاظاً
لَا تُوْذِي بَلْ تَقَرِّرُ الْوَاقِعَ ، كما ترى في هذين البيتين أثر المنطق في شعره .

ومن شعره أيضاً قوله في هجاء قَتْمِ حَتَّامٍ ^(١) [البسيط]
وَقَتْمِ كَلَّمْتُ جِسْمِي أَنَامِلَهُ بِمِيرِ أَلْسِنَةِ تَكْلِيمِ خَرَصَانِ
إِنْ رَامَ مَسْكَ يَمِينِي كَادَ يَخْلَعُهَا
أَوْ سَرَّحَ الرَّأْسَ بَعْدَ الْفَسْلِ أَبْكَانِ
فَلَيْسَ يُمَسِّكُ بِالْعُرُوفِ مِنْهُ يَدَا وَلَا يُسَرِّحُ تَسْرِيحاً يَا حَسَانَ

وله كذلك أبيات من أُنْذَعَ ما رأيت له في الهجاء قالها في ذم رجل يهودي - وهذا
كان موقفه دائماً من اليهود ، فقد لاحظت في كتابه كراهية منه لهم ، وسُخْطاً
عليهم - يرميه بالبخل الذي عرفوا به ، فيقول : ووقم لي من طريف الاستمارة
أبيات هجوت بها يهودياً نبطياً ، وهي : ^(٢) [الطويل]

رَأَيْتُ أَبَا الْخَيْرِ الْيَهُودِيَّ مُنْمَسِكًا
بِقَارورة كَالْمَرْسِ رَاقٍ حَلِييُهَا
وَقَدْ رَشَ مِنْهَا فَوْقَ صَفْحَةِ وَجْهِهِ
وَقَالَ : أَتَدَاخِيَا فَوَادِي طِييُهَا
فَقُلْتُ لَهُ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : بَوَلَةٌ
لَأَسْوَدَ يَشْفِي الدَّاءَ مَنَى فَضِييُهَا

(١) ويرويان كذلك في عيون التواريخ برواية أخرى لا تؤدي إلى اختلاف المعنى .

(٢) تحرير التحرير « باب الاستمارة » .

قرية عُمَدٍ بالحَيِّبِ ، وإنما
هَوَى كُلُّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيْبُهَا (١)

* * *

وخلاصة القول في شعره — على أساس ما وقع لنا منه — أنه من شعراء
البديع المتقدمين في عصره، وكل ما نأخذه عليه أن غالب شعره الذي كان يتمثل به
إنما كان يصدر عن لسانه هو وكان يعتمد فيه على الصنعة البديعية ، فلم يبلغ فيه
مُحوِلة السابقين .

وخير دليل على ذلك قصيدته التي يمدح بها الملك الأشرف موسى الأيوبي
والتي مطلعُها : (الطويل) .

فضحت الحياءَ والبحرَ جُوداً قد بكى الـ
حَيّاً من حيارٍ منك والتَطَمَ البحرُ
عيونُ مَمانِها سَاحاً وأعينُ الـ
مِلاحِ مِرَاضُ في لَوَاحِظِها كَسَرُ
هِيَ السُّحَرُ فاجب لأمري جاء يَنْتَفِى
عواطفَ من موسى وصنعتُه السَّحَرُ
ثم يملق على هذه القصيدة بقوله :

« وقع لي في البيت الأول من هذه الأبيات ستة عشر ضرباً من البديع فيه ،
الإستعارة في ثلاثة مواضع في « اقتضاح الحياء ، وبكائه ، وحيائه ، والمبالغة
إذ جمعت الممدوح يفضح الحياء والبحرَ بجوده ، والتفسير في قوله « جوداً » وقوله :
من حياءٍ منك ، والإغراق لما في جملة القافية من زيادة ، والترشيح بذكر الاستعارة
الأولى للإستعارة الثانية ، والتجنيس بين الحياء والحياء ، والتورية في قوله
« والتطم البحر » ، والترشيح للتورية بذكر البكاء ، وصحة التقسيم في حصر

(١) هذا البيت لإبراهيم بن العباس الصولي ، الصناعتين : ٩ .

القسمين اللذين يُضْرَبُ بهما المَثَلُ في الجُودِ ولا ثالثَ لهما ، والتصدير
في كون البحر مذكوراً في صدر البيت وهو قافيته ، والتعليل في كون اللمة
في بكاء الحيا والتطام البحر وفضحهما بجوده ، والتسهم في كون صدر البيت
يدل على عجزه ، وحسنُ النسق في كون جُمْلَتِهِ مُعْطِفٌ بمضها على بمض بأصح
ترتيب ، والإرادف لأنّ عِزَّتْهُ عن عظم الجود يبكاء الحياء من الحياء
والتطام البحر .

فهذا ما في تفاصيل البيت ، وأما ما في جملة غيالمساواة لكون لفظه جمل
قالبا لعمناه ، واختلف لفظه مع معناه في كون ألفاظ البيت متلائمة مختارة ، لا تصلح
موضع كل لفظه غيرها لخلوّه من التعقيد ، والتقديم والتأخير وسوء الجوار
والإبداع فكل لفظه من مفرداته تتضمن نوعا أو نوعين من البديع .
وهكذا شأنه ، وهذه حاله في شعره .

ثالثاً - آثاره العلمية

أولاً : تحرير التجبير الذى ألفه فى بديع الشمر والنثر ، وهو كتاب بين مؤلفه لنا مادفمه إلى تأليفه ، فقال فى مقدمته : « وبعد : فإنى رأيت ألقاب محاسن الكلام التى نعتت بالبديع قد انتهت إلى عدد منه فروع وأصول ، فأصولها ما أشار إليها ابن المعتز فى بديعه ، وقدامة فى نقده ، لأنهما أول من عنى بتأليف ذلك إلى أن يقول ولما أمرنى من لا محيد لى عن أمره ولا يحصى عن رسمه سيد الفضلاء ... أبو على الحسن بن الحسن بن القاضى الأجل جلال الدين المكرم أبو الحسن موسى بن الحسن ابن سناء الملك يجمع ما فى كتب الناس الخ . وقد قسم كتابه المشار إليه إلى ثلاثة أقسام :

وفى القسم الأول منه تكلم عن الأصول وهى الأبواب التى ذكرها كل من ابن المعتز وقدامة ، وذكر فى هذا القسم من أنواع البديع ما يأتى :

- (١) الاستمارة (٢) الجناس (٣) الطباق (٤) ردّ الامحاز على الصدور
- (٥) المذهب الكلامي (٦) الالتفات (٧) التمام (٨) الاستطراد (٩) تأكيد المدح بما يشبه الذم (١٠) تجاهل العارف (١١) الهزل الذى يراد به الجد (١٢) حسن التضمين (١٣) الكناية (١٤) الإفراط فى الصفة (١٥) التشبيه (١٦) إعتابُ المرء نفسه (١٧) حسن الابتداءات (١٨) صحة الأقسام (١٩) صحة المقابلات (٢٠) صحة التفسير (٢١) ائتلاف اللفظ مع المعنى (٢٢) المساواة (٢٣) الإشارة (٢٤) الإرداف والتتبع (٢٥) التمثيل (٢٦) ائتلاف اللفظ مع الوزن (٢٧) ائتلاف المعنى مع الوزن (٢٨) ائتلاف القافية مع ما يبدل عليه سائر البيت (٢٩) التوضيح (٣٠) الإيغال .

ثم تكلم فى القسم الثانى من أقسام الكتاب عن الأبواب التى عدّها فروعا ، وهى : ٣١ الاحتراس (٣٢) المواربة (٣٣) التريديد (٣٤) التعمط (٣٥) التفويف (٣٦) التسهم (٣٧) التورية (٣٨) الترشيح (٣٩) الاستخدام (٤٠) التغاير (٤١) الطاعة والمصيان (٤٢) التمسيط (٤٣) المائلة (٤٤) التجزئة (٤٥) التسجيل

(٤٦) الترسيع (٤٧) التصريح (٤٨) التشطير (٤٩) التعليل (٥٠) التطريز
 (٥١) التوشيح (٥٢) المكس والتبديل (٥٣) الإغراق (٥٤) الغلو (٥٥) القسم
 (٥٦) الاستدراك والرجوع (٥٧) الاستثناء (٥٨) الاشتراك (٥٩) جمع المؤلفات
 والمختلفة (٦٠) التوهيم (٦١) الاطراد (٦٢) التكميل (٦٣) المناسبة (٦٤) التفريع
 (٦٥) التكرار (٦٦) نفي الشيء بإيجابه (٦٧) الإبداع (٦٨) الاستعانة
 (٦٩) التذليل (٧٠) المشاكلة (٧١) الواردة (٧٢) التهذيب والتأديب (٧٣) حسن
 النسق (٧٤) الانسجام (٧٥) براعة التخلص (٧٦) الحل (٧٧) المقد (٧٨) التعليق
 (٧٩) الإدماج (٨٠) الإنساع (٨١) الجاز (٨٢) الإيجاز (٨٣) سلامة الاختراع
 من الاتباع (٨٤) حسن الاتباع (٨٥) حسن البيان (٨٦) التوليد (٨٧) التنكيث
 (٨٨) الانفاق (٨٩) النوادر .

وقد وجه نقداً إلى بعض مُعاصريه وهو الأجداني في تسميته بعض أنواع
 البديع ونسبتها إلى نفسه ، وادعائه أنه غير مسبوق إليها ، وهي :

(٩٠) الالتزام .

وقد ظن ابن الإصبع أن هذا الباب من صنيع الأجداني ، والحقيقة غير ذلك
 إذ أن الالتزام هو بمبني «لزم ما لا يلزم» الذي سماه ابن المعتز «إعانت المرء نفسه»
 وليكنني التمس المذمر للمالين الفاضلين ، فالخلاط وقع من جراء التحريف في النسخ
 التي اطلعا عليها .

(٩١) التسبيغ .

لم يبرق ابن أبي الإصبع هذا الاسم ، ورأى أنه لا ينطبق على سماء ، فسماه
 تشابه الأطراف .

(٩٢) التشريع .

وكان صنيعه في هذا النوع كسابقة وسماء: التوأم، ثم قال بمد ذلك: وهذا آخر
 ما جمعه من كتب الناس بعد التنقيح والتحرير ، وتغيير ما حسن فيه التغيير^(١)

(١) تحرير التحرير باب التوأم.

ثم بين ما حفزه إلى اختراع ما اخترع من الأنواع ، وتجديد ما جدد في البديع فقال في المقدمة : ولما خطر لي أن أتحف الجنب العالى « كال الدين »^(١) أبا القاسم عمر بن هبة الله المصلي البصري الحلبي المولد والمنشأ ، رحم الله سلفه كما رحم به من عرفه ، وأتمته بفضائله كما أمتع الفضلاء بفواضله ، وعلمت أنه أهل لأن تُسكده له الخواطر ، ونجم^(٢) له القرائح ... عنلى استنباط أبواب تزيد بها القوائد ، ويكثر بها الامتاع ، نسجنا على منوال من بعد منى ، واتباعا لسنة من سبقنى ، ففتح على فى ذلك ثلاثين بابا سليمة من التداخل والتوارد ، ولم أسبق فى غلبة ظنى ، اللهم إلا أن يوجد فى زوايا الكتب التى لم أقف عليها بما اخترعته فأكون أنا والسابق إليه متواردين عليه ، وما أظن ذلك ، والله أعلم^(٣) .

ثم أراد أن يبين السرفى قصر مخترعه على ثلاثين بابا فقط فقال^(٤) :

« لما انتهى استخراجى إلى هذا العدد أمسكت عن الفكر ، ليكون ما أنيت به وفق عدد الاسول .

ثم قال (٥) : وهذا أو ان سياقة أبوابى التى استنبطتها ، وأنواعى التى اخترعتها وهى :

(١) التخيير (٢) التدييج (٣) التمزيج (٤) الاستقصاء (٥) البسط (٦) الهجاء فى معرض المدح (٧) العنوان (٨) الإيضاح (٩) التشكيك (١٠) الحيدة والانتقال (١١) الشماطة (١٢) التهكم (١٣) التندير (١٤) الاسجال بعد المناطاة (١٥) الفرائد (١٦) الافازر والتعمية (١٧) التصرف (١٨) الزاهرة (١٩) التسليم (٢٠) الاقتنان (٢١) المراجعة (٢٢) السلب والإيجاب (٢٣) الإبهام (٢٤) القول بالموجب

(١) هو كال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد ابن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبى جرادة ابن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عقيل الحلبي الفقيه الحنفى الكاتب المعروف بابن العديم ، ولد بحلب فى العشر الأول من ذى الحجة من سنة ٥٨٦ هـ وسمع الحديث من أبيه وعمه أبى غانم محمد ، وأفتى وصنف ، وكان إماماً عالماً فاضلاً مفتناً فى علوم كثيرة ، وهو أحد الرؤساء المشهورين ، والعلماء المذكورين ، كان محدثاً فاضلاً حافظاً مؤرخاً وكان من أعيان مصر ، ومن الذين يرجع إليهم فى الشورات السياسية والملك ، مات فى القاهرة سنة ٦٦٠ هـ ودفن بها انظر النجوم الزاهرة ٥/٥٠٠ و ٢٠٩/٨ ومعجم الأدباء وفوات الوفيات ١٠١/٢ .

(٢) نجم له القرائح : تراخ (٣) مقدمة تحرير التحرير

(٤) المصدر نفسه ٩ وما بعدها . (٥) انظر باب التوأم من أبواب بديع القاصد

(٢٥) حصر الجزئى وإلحاقه بالكلى (٢٦) المعارضة (٢٧) المناقضة (٢٨) الانفصال (٢٩) الإبداع (٣٠) حسن الخاتمة .

ثم يقول بعد ذلك فى المقدمة ^(١) : « وألحقت ذلك بما تقدم من الأبواب فصارت عدة أبواب الكتاب مائة باب وعشرين باباً » فى حين أنها مائة باب واثنان وعشرون باباً فلهذا لم يعد بأبى الأجدابى اللذين غير اسميهما وأبقى مسماهما ثم قسم هذه الأبواب كلها قسمين فقال : « وجلة هذه الأبواب على ضربين : ضرب يختص بالشعر، وضرب يختص بالشعر والنثر » وإن التأمل فى هذا الكتاب ليحس إحساساً ظاهراً واضحاً أن المؤلف قد بالغ فى انتقاء شواهد ، كما بالغ أيضاً فى حسن اختيارها . وهذا يترأى لنا عندما تناول هذا الكتاب بالدرس فى بحث آخر .

وإن الناظر فى هذا المصنف ليراه فريداً فى بابه ، وقد تنبعت ما استطعت أن أتتبعه من الكتب التى تمررت لهذا الفن فإرأيت له نظيراً فيما سبقه ، ولا فيما لحقه ، إلا أن يكون مؤلفاً بعيداً عن متناول أيدينا .

ثانياً : ومن آثاره أيضاً كتاب « بديع القرآن » الذى نحن بصدد تحقيقه وهو كتاب نسيج وحده فيما جاء فى آيات الذكر الحكيم من الأنواع البديعية التى جمعا عن السابقين ، والتى اخترعها ، فإنه أتى فيه بالمعجب المعجب ، ليدل بذلك على أن الأنواع البلاغية والمحسنات البديعية غير مقصورة على شعر الشعراء ، ونثر الكتّاب ، بل هى موجودة فى القرآن :

(١) ومصادق ذلك ما قاله المؤلف فى مقدمة كتاب « بديع القرآن » فبعد أن تكلم عن « تحرير التحجير » وأنه الأصل الأصيل الذى حاول اختصاره فلم يجد إلى ذلك من سبيل ، فأفرد منه ما يختص بالقرآن من الأنواع البديعية ، وذلك حيث يقول : « وسئلت اختصاره فلم أجده إلى ذلك من سبيل ، لارتباط بعضه ببعض ، ودعاء الحاجة إلى كل ما فيه ، وتعلق معانيه بمبانيه ، ورأيت أنى إذا أفردت منه الأبواب المختصة بالقرآن العزى كان ذلك اختصاراً نافعاً تتميز فيه بلاغات القرآن وبديعه ويسهل استخراج إعجازه ، وتقريب طرق إطنابه وإيجازه ؛ وأكون

قد أتيت من ذلك بما لم أسبق إليه ، فأفردت الأبواب المختصة بالكتاب العزيز .

استطاع المؤلف في كتابه هذا أن يثبت أن القرآن قد حوى صفات الأدب الخالدة ، ومميزاته النفسية ، وهذا ما جعل الناس يدركون إعجازه ، ويتذوقون جماله في تعاليمه الرقيقة ، وقيمه الأخلاقية السامية التي تقصد إلى تنظيم الحياة على رغم بساطتها ، وفي هذه البساطة سر من أسرار الجمال الفني الذي يظهر في الخيال الخصب الذي يصور الندم ، وعذاب الضمير ، وآلام النفس ^(١) وأفراحها ، وتماطف البشر ، ويصور الجنة والنار وقد أدى بذلك ما أراد إبلاغه للناس بأجل موسيقى ، وخير أداء ، وبين أن المعنى ينساب إلى النفس مع انسياب الألفاظ إلى السمع ، فكان الكلام يقع في القلب لا في الأذن ^(٢) ، وكأنه يخاطب بذلك الروح فتدرك منه معرفة منشئه بالنفس البشرية ، وحسن التأني في مخاطبتها ، كما أن المؤلف لم ينس أن يكشف عن تعاليم القرآن الدينية ، ومثله العليا التي تدل على التقدير الخلق والأدب ^(٣) . هذا كله أراد المؤلف أن يظهره في كتابه .

(ب) ولما كان (بديع القرآن) مقرداً من « تحرير التحبير » لزم الإشارة إلى ما بينهما من توافق ونحاف ، ففي « بديع القرآن » تكلم عن مائة باب وتسعة أبواب ، وترك من أبواب « التحرير » اثنين وعشرين نوعاً لم يذكرها ، وهي :

- (١) الهزل الذي يراد به الجد (٢) ائتلاف اللفظ مع الوزن (٣) ائتلاف المعنى مع الوزن (٤) التجزئة (٥) الترصيع (٦) التصريح (٧) التشطير (٨) التطريز (٩) التوشيح (١٠) الإغراق (١١) الغلو (١٢) الاشتراك

(١) انظر باب عتاب المرء نفسه .

(٢) انظر ائتلاف اللفظ مع المعنى ، والإبداع .

(٣) انظر باب « النزاهة » وأراد به نزاهة ألفاظ المجيء عن الفحش حتى يكون المجيء

كما قال أبو عمرو بن العلاء ، تشده العذراء في خدرها فلا يقبح عليها .

(١٣) التفریع (١٤) الإبداع (١٥) الاستقامة (١٦) المشاكلة (١٧) الواردة
(١٨) الحل (١٩) المقصد (٢٠) الاتفاق (٢١) الهجاء في معرض المدح
(٢٢) الإلفاظ والتعمية .

وذلك لأنه لم يجد لها أمثلة في القرآن الكريم . وإن وجد بمض المؤلفين
لبعضها فيما بعد^(١) .

كما ذكر المؤلف أنواعا بديعية في كتاب « بديع القرآن » ولم يذكرها
في « تحرير التحرير » وهي :

(١) التلخيص (٢) التفصيل (٣) الإلجاء (٤) التنظير (٥) الزيادة التي
تفيد اللفظ فصاحة وحسنا (٦) التفریق والجمع (٧) الرمز والإيماء .

(ج) ولعل السر في ذلك هو تأليف « تحرير التحرير » أولا ، ثم أفراد
« بديع القرآن » منه ، فظهرت له هذه الأنواع بعد الدراسة والبحث عن أنواع
البديع ، فعثر على أمثلة لهذه الأنواع فذكرها ، وبما يقوى ما أقول إن هذه
الأنواع لا توجد في النسختين اللتين رمزت لهما بحرفي « ا » ، « ب » وهذه
الأنواع ليست مستحيلة الوقوع في كلام البشر ، بل من الممكن وجودها في
كلامهم ، كما أن الدلائل الواضحة على أن هذه الأنواع مزیدة في البديع بعد
تأليف « التحرير » الاضطراب الذي وقع في باب « السلب والإيجاب » فزى
المؤلف قد تسكلم عن هذا النوع تحت اسم « نقي الشيء بإيجابه » وتسكلم تحت
اسم « السلب والإيجاب » في بديع القرآن عن إثبات الشيء للشيء بنفيه عن
ذلك الشيء ، تسكلم عن السلب والإيجاب فيما أخذه عن السابقين ، وفيما عرفه
في « تحرير التحرير » بنقي الشيء بإيجابه .

وليت الأمر وقف عند ذلك ، بل إنه سمي نوعين في « تحرير التحرير »
باسمين ، ثم غير هذين الاسمين في « بديع القرآن » وهما « ائتلاف القافية مع ما يبدل

(٢) اظهر خزانة الأدب لابن حجة في أبواب التصريح ، والإغراق ، والمشاكلة .

عليه سائر البيت ، « والتصرف » وسماها في « بديع القرآن » ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام ، « والاقتدار » .

(د) وقسم المؤلف « بديع القرآن » إلى الأقسام الثلاثة أيضاً ، وأخذ على نفسه عهداً ألا يستشهد فيه إلا بالآيات القرآنية ، ولـكـنـنا زاه قد خالف عهدَه ونقص شرطه في باب القسم « وجم المؤلفات المختلفة » وباب « حسن الاتباع » وسرعان ما يلتزم لنفسه العذر ، ويبين السبب الذي من أجله خالف شرطه ، ونقص عهده وهو التقديم للآية بشيء من الشعر ، ليوضح ما هو بصدده من الأنواع ، حتى يوقف القارئ على حقائق لا يكاد لا يحسبها لو لم يقدم لها شيء من الشعر ، كما أنه كان يضطر أحياناً إلى ذكر شيء من الشعر ليقارن بينه وبين آية من آيات القرآن ليكشف عن بلاغته وحسن بديعه .

(هـ) وسوف أترك الحديث عن الأصول والفروع من أقسام الكتاب ، لأنهما لا يختلفان كثيراً في « بديع القرآن » ، عنهما في « تحرير التحبير » .

أما القسم الثالث وهو الجديد الذي اخترعه ، فقد بينت في تحقيقى لبديع القرآن مدى صحة ادعائه وبيان ما سلم له من الأنواع وما لم يسلم ، مُرجعاً كل نوع إلى صاحبه في الهامش .

ثالثاً : « كتاب الخواطر السوانح في أسرار الفوائد »^(١) .

لم يسعدنى الحظ بالعثور على هذا الكتاب ، ولعل موضوعه الكلام على معاني أوائل السور ، والمراد منها ما ذكره المؤلف في كتابه « بديع القرآن » ، كما ذكر السيوطي^(٢) أنه من الكتب التي اطلع عليها وتأثر بها واستمد منها في كتابه الإتيان .

(١) ذكره صاحب معاهد التنصيص في ترجمته لابن أبي الإصبع تحت اسم « الجواهر السوانح في سرير القرائح : وكذلك تكلم عنه مؤلف كتاب الحركة الفكرية في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبيه تحت هذا الاسم ؛ والصواب ما ذكرناه عن المؤلف نفسه وعن الإتيان للسيوطي .

(٢) الإتيان ٩/١ .

رابعاً : كتاب الأمثال ^(١)

ابتدأ فيه بذكر ما وقع في القرآن الكريم من الأمثال ، وألحق بها أمثال دواوين الإسلام ، وختم الجميع بذكر أمثال العامة ، وذكر في كتابه « تحرير التحجير ^(٢) » أنه استخرج أمثال أبي تمام من شعره فوجدها تسعين وثلاثمائة بيت بعد استخراج أمثال المتنبي التي وجدها مائة نصيف وثلاثة وتسعين نصفاً ، وأربعمائة بيت ، ولكنه أخرج من أمثال أبي الطيب ما وجده من أمثال أبي عام وهو أيضاً من الكتب المفقودة .

خامساً : صحاح الدانغ ^(٣)

وهو عبارة عن ديوان شعر مدح به النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته كما مدح فيه الخلفاء الراشدين الأربعة ، ووصف في بعض قصائده القرآن وبلاغته وحسن تركيبه وبديع أسلوبه ، وهو مفقود لم أعتز عليه .

سادساً : « الكافّة في تأويل تلك عشرة كاملة ^(٤) »

وهذا كتاب يخيّل إلى أنه يتصل بمادة المؤلف ، إذ أنه تكلم كثيراً في بديع القرآن عن تفسير بعض الآيات القرآنية وتأويلها ، وتخريجها ، وعارض بعض المفسرين في بعضها ، كما تكلم عن الأفلاك ، وعن خلق السموات السبع وما تعرف العرب من نجومها والهداية بها ، وأنوائها ، وإزال القيث من جهتها ومقدمات ذلك من الرعد والبرق وتصريف الرياح ، وأن العرب لا تعرف من الأفلاك إلا الكوكبة منها لرقبتها لها عند سيرها في الليالي ومسراها فيها ، ولا شك أن هذا الكتاب شديد الصلة بهذا الموضوع وتلك الدراسة ، وهو مفقود لم أعتز عليه أيضاً .

(١) انظر أنوار الربيع في علم البديع ١٦٨ .

(٢) تحرير التحجير ٨٠ .

(٣) انظر بديع القرآن باب البسط .

(٤) انظر باب البسط من بديع القرآن .

سابعا : « الشافية في علم القافية »

وهذا الكتاب يُعرف موضوعه من اسمه ، فهو من غير شك يبحث في علمي العروض والقافية ، ولم أعر عليه كذلك .

ثامنا : « الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومه ^(١) »

وهذا الكتاب له صلة وثيقة بالنقد ومعرفة ما يلزم في تأليف الشعر والنثر وتخير المكان والزمان في ذلك ولم أخط برؤيته .

ثاسما : « وصيته إلى الكتاب والشعراء ^(٢) »

وهو عبارة عن تحرير وتخيير لوصية أبي تمام للبحثري ، لأنه رأى أن وصية أبي تمام محتاجة إلى تخيير وتحرير في معانيها ، وإيضاح لما أشكل منها ، وزيادة تفقير إليها ، فحرر فيها ما يجب تحريره ، وأضاف إليها ما وجده لازما لها ، فصارت وصية قائمة بذاتها ، أستعين الله في نشرها على حدة .

* * *

وإلى هنا أقف عند هذا الحد من التقديم ، ولأدخل إلى هذه الدراسة التاريخية الفنية المتخصصة لكتاب « بدع القرآن » ، فإن ذلك تموزة رسالة خاصة ، أرجو أن أوفق إلى كتابتها إن شاء الله تعالى ، وقد جعلت هذه الرسالة للماجستير تمهيدا لتلك ، واقتصر هنا على تحقيق النص ، وتقديمه في هذه الفصول .

وها هو ذا نص الرسالة ، وعند الله أحسب ما بذلت في سبيل تحقيقها من أوقات وجهود .

(١) انظر باب التهذيب والتأديب من تحرير التحرير .

(٢) المصدر نفسه .

المستعمل

غفر الله له ولوالديه

الفهرس

الصفحة

مقدمة

الفصل الأول : كلمة بديع - معانيها اللغوية والفنية في تاريخ البلاغة

المرية

٦ - ١

كلمة بديع في اللغة ، في الشعر الجاهلي ، في القرآن الكريم
في الحديث النبوي

٣٢ - ٧

كلمة بديع في شعر ونثر صدر الإسلام ، في العصر العباسي الأول
كلمة بديع في ميدان المفاهيم العلمية والبيانية ، عند الجاحظ ،
عند المبرد ، عند أبي قتبية ، عند ابن المعتز ، عند قدماء بن جعفر ،
عند أبي هلال العسكري ، عند ابن سنان الخفاجي ، عند
عبد القاهر الجرجاني ، عند أسامة بن منقذ ، عند السكاكي ،
عند ابن الأثير صاحب المثل السائر ، عند ابن أبي الأصبع

٥٦ - ٣٣

الفصل الثاني : في بديع القرآن و بلاغته

آراء متفرقة في أثناء السكتب عن بديع القرآن و بلاغته ،
بديع القرآن عند المعتزلة ، بديع القرآن عند الجاحظ ، بديع
القرآن عند المفسرين - القراء ، ابن جرير الطبري ،
الزمخشري ، ابن عطية - بديع القرآن عند الأدباء -
علي بن ربن الطبري ، أبي هلال العسكري ، ابن سنان
الخفاجي ، السكاكي

كتب خاصة بالدراسات القرآنية

بديع القرآن عند أبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه مجاز
القرآن

(م - ٧ بديع القرآن)

الصفحة

بديع القرآن عند ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن
بديع القرآن عند الواسطي في كتابه «إعجاز القرآن البياني»
بديع القرآن عند الرماني في كتابه «النكت في إعجاز القرآن»
بديع القرآن عند الخطابي في كتابه «بيان إعجاز القرآن»
بديع القرآن عند أبي بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز
القرآن»

بديع القرآن عند الشريف الرضي في كتابه «محاز القرآن»
بديع القرآن عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار
البلاغة ودلائل الإعجاز
بديع القرآن عند فخر الدين الرازي في كتابه نهاية الإيجاز
في دراية الإعجاز
بديع القرآن عند ابن أبي الإصبع في كتابه بديع القرآن

- ٥٧ -

الفصل الثالث : في التعريف بالمؤلف

عصره السياسي ، عصره الاجتماعي ، عصره العلمي ، حياته ،
نسبه ، مولده ، نشأته وبيئته ، علمه ، نقده ، شعره ، آثاره
العلمية ، تحرير التحرير ، بديع القرآن ، الخواطر السوانح
في أسرار الفوائد ، كتاب الأمثال ، صحاح المدايح ،
الكافة في تأويل تلك عشرة كاملة ، الكافية في علم القافية ،
الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومه ، وصيته إلى
الكتاب والشعراء .